

بسم الله الرحمن الرحيم

مادة العقيدة في الدراسات الاستشرافية والحداثية

إعداد الأستاذة: عبلة عميرش

البريد الإلكتروني: ablaamirech@gmail.com

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين..

في البدء، ثمة جملة من الملاحظات،

/* تأتي هذه المحاضرات بهذه الهيئة الاستثنائية، وفي هذا الظرف الخاص - ونسأل الله فيه رفع البلاء عن أمة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وعن البشرية جمعاء -، و جاءت أيضا بهذه الكيفية المختصرة نوعا ما، ويأعداد يشوبه الاستعجال، مع الحرص على تقديم الخطوط العامة التي يحتاجها الطالب، ثم عليه أن يوسع اطلاعه من خلال المصادر والمراجع المقترحة آخر هذه الصفحات أو من غيرها.. ويمكنكم التواصل معي عبر البريد الإلكتروني المسجل أعلاه..

/* إن طبيعة هذا المحور الذي سيتناول ضمن عناصره المصادر المعتمدة والمسائل المدروسة، وهي في العرض المباشر للمحاضرة تتطلب إرفاق المصادر ليطلع عليها الطالب معاينة، ولكن، وإذ تعذر ذلك في هذا الوضع، فقد أرفقت حدا أدنى من العينات التي تجب رؤيتها، مثل الإضافة في آيات القرآن عند الترجمة، أو مثل الترجمة لحياة النبي عليه الصلاة والسلام من مصادر تخلو من السير والتواريخ العربية تماما وغيرها كما سيأتي، وقد اقترحت لكم ملحقا مصغرا لصور من بعض صفحات تلك المصادر..

* / الملاحظة الثالثة تتعلق بضرورة وجود معارف مسبقة مطلوبة تعتمد عليه دراسة هذه المادة، وأهمها كما هو مقرر في مفردات المادة؛ دراسة مادتي الاستشراق، والحداثة .. غير أن الطالب في هذا القسم ماستر-1 عقيدة، لم يسبق له دراسة مادة الاستشراق لا في مرحلة الليسانس ولا في مرحلة الماستر، مما قد يشكل ثغرة في تكوين الطالب، وقد كان تداركها متيسرا خلال الدراسة في الجامعة خلال عرض المحاضرة، وحين تعذر ذلك أيضا، فإني أقترح مطبوعة تسهل التعرف على الاستشراق، وقد أرفقت ملحقا ثانيا للمطبوعة الخاصة بالاستشراق.. هذا وبالله التوفيق..

العقيدة في الدراسات الاستشراقية والحداثية المحور الثاني "مناهج العرض" (المصادر المعتمدة، المسائل المدروسة، مرتكزات الدراسة والخلفيات الفكرية)

سبق التعرف على المحور الأول من مادة العقيدة في الدراسات الاستشراقية والحداثية، الذي تناول "بواكير الاهتمامات الاستشراقية والحداثية بدرس العقيدة الإسلامية"، بما في ذلك تفاصيل المحور من المنطلقات والأسباب والأهداف والوسائل وأهم الشخصيات الاستشراقية والحداثية وغيرها..

ثم يأتي هذا المحور الثاني من المفردات المقررة وعنوانه: "مناهج العرض" وهو يتوجه بالتركيز على (المصادر المعتمدة، المسائل المدروسة، مرتكزات الدراسة والخلفيات الفكرية)، وهي بلا شك تهدف إلى معرفة أعمق بالإنتاج الفكري لكل من المستشرقين والحداثيين؛ وذلك من خلال أسسه ممتثلة في مصادر أساسية طالما اعتمدها المستشرقون ثم الحداثيون من بعدهم، ومناهج اختصوا بها وكونوا بها مصادرهم تلك فكانت قواما لها.

المصادر المعتمدة:

المقصود بالمصادر المعتمدة هي ما يؤسس عليه المستشرقون والحداثيون دراساتهم مع ما يؤلفون من مصادر ليعتمده بدورهم ثم يعتمده من بعدهم من ينتمي إلى مجالهم المعرفي أو له تعلق به، بالإضافة إلى مجمل المصادر المعتمدة لديهم، والتي يتبنونها وينتجون ثقافتهم من خلالها، وعلى منوالها، ليشكل كل ذلك مجمع مصادر المستشرقين والحداثيين..

فيل الدخول في هذا الدرس وتفصيله، يجدر التأكيد على أهم النقاط المنهجية التي ينبغي أخذها في الاعتبار خلال هذه المحاضرات الخاصة بالمصادر والمسائل المدروسة، وبالخلفيات الفكرية والمنطلقات من مادة العقيدة في الدراسات الاستشراقية والحداثية، وذلك بالتوجيه إلى مضامين العقيدة الإسلامية المعلومة كالإيمان بالوحي، وما وجه إلى الإيمان به من الحقائق وأركان الإيمان الستة؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، وكذا ما اشتمل عليه الوحي من الخبر عموماً، وكبف تناولتها الدراسات الاستشراقية والحداثية رغم اختلاف التناول بين المستشرقين والحداثيين وبين المنطلق والمبدأ الإيماني الإسلامي، ورغم اختلاف المصطلحات والتصنيفات. ولا بد من الرجوع إلى المعيار المعترف في كل ذلك وهو الوحي كتاباً وسنة وما اشتمل عليه، لأن الطالب سيجد ذلك المحتوى العقائدي لدى المستشرقين والحداثيين في كتبهم ودراساتهم مفرقا، خاليا عن كل الترتيب الذي اعتاد عليه، وفي غير السياقات الإيمانية المستمدة من الوحي، ومن ثم ينبغي التماس المحتوى العقائدي ولكن في سياقات نقيضة، وبلهجة لا إيمانية وبمضمون يتوجه إلى رفض تلك العقائد الإسلامية.

أما بالنسبة لعينات المصادر المعتمدة فيمكن الإشارة إلى أصناف من المصادر يعتمدها كل من

الحداثيين والمستشرقين، ويؤسسون عليها إنتاجهم الفكري كأمثلة فقط ومن دون حصر؛ فمنها مصادر استشراقية صرفة في إعدادها وتأليفها، ومنها - وهي أقل من الأولى بكثير - مصادر غير متخصصة في مجال

العلوم الدينية، وأخرى لا تجوز على أي أهمية من أي نوع ولكنهم يفرضونها على الثقافة العربية والإسلامية
فرضا مثل الذي يعرف بألف ليلة وليلة، ونوع ثالث من المصادر وهي متخصصة، ويميزها أنها تشتمل على
الروايات صحيحها ومنكرها، فتشكل لذوي الأغراض حرزا ثمينا..

غير أن النوع الذي ينبغي التوجه إليه وتركيز النقد عليه هو النوع الأول: هو عبارة عن مصادر
استشراقية تحوز أهمية قصوى عند كل من المستشرقين والحداثيين باعتبارها دراسات تخطت حاجز النقد،
وكسرت الموروث والمسلمات لدى المسلمين، ويخصونها بالتبجيل ويعطونها الصدارة؛ سواء من الناحية
المنهجية، أو من ناحية المادة المعرفية، ويعطونها الأولوية من حيث المصادقية مع أن أكثر ما تفتقر إليه هو
المصادقية.. وتحتاج إلى نقد جذري وعلمي، وأمثلة هذا النوع كثيرة ولا يتسع لها المقام، غير أن بعضها يغني
عن كثير، ويمكن الإشارة في البدء إلى عينة يعدها المستشرقون ومثلهم الحداثيون من المصادر الرائدة في
الدراسات القرآنية، ويرونها طورت البحث فيه وهو كتاب "تاريخ القرآن" لكل من نولدكه وشفالي
وبرغستراسل و يرتزل.

هذا الكتاب الذي نال ثقة وثناء كل من المستشرقين والحداثيين، هذا الكتاب العمدة عند أصحابه
والذي يستهدف إبطال المصدر الإلهي للوحي ويحاول إثبات مصدر مادي وتاريخي له تجده في واقع الأمر لا
يستند في ذلك إلى أي مصدر علمي أو غير علمي سوى نفسه.. وستأتي بعض العينات من الكتاب ولا بد
من التأكيد على أن نقلها إنما هو لتعريف الطالب بالكتاب الذي يحكمون عليه بأنه العمدة في الدراسات العلمية
والنقدية حول القرآن لينظر الطالب في مزاعم العلمية والموضوعية التي يدعيها مؤلفو الكتاب ثم المستشرقون
والحداثيون، حيث جاء في مقدمة المترجم: ' يتصف البحث بمجملة بالرصانة والجدية في التعامل مع المصادر
وعلى رأسها القرآن الكريم. حتى الجزء الأول الذي قد يبدو أن فيه تجنيا على الإسلام ونبيه، إنما هو قائم على
دراسة فيلولوجية دقيقة لنص الكتاب العزيز، لا محرك آخر لها إلا حب المعرفة وإشباع الرغبة في العلم. هذا ما
دفع بالباحث إلى أن يعود، متبعاً المنهجية التاريخية-النقدية، إلى الأصول، أي، في هذه الحال، إلى نص

القرآن ذاته، فيسعى إلى أن يستخرج منه نتائج، تضيف عليها الثوابت التاريخية طابع اليقين. و التركيز على البحث اللغوي والأدبي ميزة تتصف بها الدراسات القرآنية الألمانية بصورة عامة، وهي بعيدة بالإجمال عن التأثير بالنزعات السياسية و الاستعمارية¹. ثم يضيف واصفا الشروط العلمية لتأليف الكتاب: " ليس الغرض من الجهد العلمي الذي يضم نتائجه هذا الكتاب الحط من قدر القرآن الكريم و النبي محمد. انه بالأحرى محاولة علمية صادقة لاستكشاف مضامين مهمة في الكتاب العزيز، بواسطة ربطها الوثيق بشخص النبي و حيوية دعوته. و هذا يقتضي معالجة نص القرآن كما وصلنا، مع طرح التساؤلات حول الظروف التاريخية التي أحاطت بنزوله و روايته عبر التاريخ. والبحث العلمي لا ينطلق إلا مما يستطيع العقل البشري أن يدركه، و أن يقبض عليه بمفاهيم. أجل، إن الفهم قبض معرفي على ما يسعى فهمه"².

يذهب مؤلفو الكتاب وخاصة نولدكه في الجزء الأول منه إلى إرجاع الوحي إلى مصادر مادية أرضية سابقة، منها الديانتين اليهودية والنصرانية، ومادة الأساطير القديمة أو إلى أشعار وما شابه، ويتناولون النبي عليه الصلاة والسلام ككل مؤسسي الديانات؛ "إن محمدا حمل طويلا في وحدته ما تسلمه من الغرباء، وجعله يتفاعل و تفكيره، ثم أعاد صياغته بحسب فكره، حتى أجبره أخيرا الصوت الداخلي الحازم على أن يبرز لبني قومه رغم الخطر و السخرية اللذين تعرض لهما، ليدعوهم إلى الإيمان، ما يجعلنا نتعرف فيه على حماس الأنبياء الذي يتصاعد حتى التشدد. كلما ازدادت دقة تعرفنا على أحسن كتب السيرة، و على المصدر الصحيح لمعرفة روح محمد، ألا وهو القرآن، ترسخ اعتقادنا بأن محمدا آمن في الصميم نفسه بحقيقة ما دعى اليه من أن يستبدل بعبادة العرب الكاذبة للأصنام دينا أسمي، يمنح الغبطة للمؤمنين"³.

1_ كتاب تاريخ القرآن، من مقدمة مترجم الكتاب جورج تامر، ص19.

2_ المصدر السابق، مقدمة المترجم، ص20.

3_ نولدكه، تاريخ القرآن، ج1، ص41.

وإذا رجعنا إلى مصادر تناول النبوة والتعريف بالنبي عليه الصلاة والسلام في تلك المصادر فيمكن الإشارة إلى عينة أساسية من دراسات المستشرق بلاشير للقرآن، وسنجد لديه أعمالاً كثيرة حوله أشهرها "ترجمة القرآن" وكتابه المهم "مقدمة حول القرآن" وقد طبع أكثر من مرة و تناول فيه على طريقتيه مواضيع متخصصة في علوم القرآن ومنها جمع القرآن و كتابته و رسمه و ترتيب السور و كذلك ترجمته و هو في كل ذلك يحدو حدو نولدكه، ويتبع المنوال ذاته سواء في منهجه أو في موضوعاته كما سيأتي. غير أن موضع الشاهد في الحديث عن هذا المصدر المعتمد لدى المستشرقين هو المصادر المعتمدة بدورها لدى بلاشير في تأليف هذا الكتاب، وهو اعتماده على المصادر الاستشراقية بنسبة عالية جدا في مسائل علوم القرآن و جمعه و كتابته، و التي تتأسس عليها منهجيا إثبات مصداقية القرآن و هذا هو الأهم. غير أن ما لا يقل أهمية و لكنه أعجب منه أن تجد هذا المستشرق الذي صنف نفسه متخصصا في مجال الدراسات القرآنية قد مهد لكتابه بوضع ثبت مصادر أو ببليوغرافيا لأجل دراسة حياة (Mahomet) و هي من ثلاثة أقسام:

الأول: Bibliographie d'ensemble / و تتألف من مصادر خمسة استشراقية بنسبة كاملة 100% يتألف منها هذا القسم.

و الثاني: البيئة العربية في زمن ماهوميت (Mahomet) ويعدد فيه أحد عشر⁵ مصدرا استشراقيا تتحدث جميعها عن المجتمع المكي و المدني، ولا يوجد بينها مصدر تاريخي عربي واحد و كأن المستشرقين هم المتخصص الوحيد في هذا الشأن العربي.

ثم القسم الثالث: عشرون مصدرا لسيرة النبي -عليه الصلاة و السلام- (Biographie de Mahomet)⁶ يتولى التعريف به و قيوم و سفاري و درمنغهام و بلاشير نفسه الذي يحيل إليه في سيرة النبي -عليه الصلاة

4- انظر الصورة 1. في الملحق 1. الخاص بصور العينات من المصادر موضوع الدراسة.

5- انظر الصورة 2. في الملحق 1.

6- انظر الصور 3.1 و 3.2 في الملحق 1.

و السلام- بعنوان Le problème de Mahomet و نولدكه و شفالي و برغستراس و براتزل في تاريخ القرآن ثم واط في "محمد في مكة" و "محمد في المدينة" و غيرهما، مع أن جل هذه المصادر أو كلها إنما تناول سيرة النبي -عليه الصلاة و السلام- بعيدا عن تقصي الخبر التاريخي فضلا عن التثبت منه ثم تأتي مصادر الكتاب⁷ لتكون النسبة الغالبة و النسبة القليلة من مصادر المسلمين التي تفصل في مسألة أساسية من علوم القرآن. إن منطق المستشرقين في التأليف يحتاج إلى تحليل عميق للكشف عن الخلل الكامن فيه، وفي بنائه والذي يدل بدوره على انعدام التلقائية و الخطوات العلمية التي يزعمونها في كل تأليف.

إن تأليف المستشرقين حول القرآن تتجاوز في أحيان كثيرة الضحالة إلى الجرم في الممارسات بحقه، والمثال هنا أيضا من عند بلاشير الذي أضاف إلى سورة النجم ما لم ينزله الله فيها حيث أدخل ما جاء لدى الزنادقة في رواية الغرائق المنكرة إل السورة وقام بدمج فحواها المنكر بقرار من عنده مخالفًا لكل الأعراف العلمية والأخلاقية مع الآية 19 منها، وانظر في ذلك الملحق في صورة خاصة بها..

المسائل المدروسة وكيفية الدراسة

لا يمكن الفصل بأي حال بين المصادر المعتمدة، والمسائل المدروسة، ويضاف إليها المناهج الاستشراقية سواء عند المستشرقين أو اعتمادها عند الحداثيين؛ مثل التاريخية والفلسفية أيضا، فهي متداخلة في دراسات الفئتين موضوع هذه المحاضرات.

وعن النماذج التي تتناول الوحي و النبوة يمكن العودة إلى كتاب نولدكه و كيفية التعريف بالنبي عليه الصلاة والسلام، حيث يقول: "غير أن روح محمد كان يشوبه نقصان كبيران يؤثران على سموه. فإذا كانت النبوة بالإجمال تصدر من الخيلة المنفعلة و موحيات الشعور المباشر، أكثر مما تصدر من العقل النظري، فإن

7- XXXIII -> introduction au Coran XIII. Blachere.

محمدًا كان يفتقر إلى هذا بشكل خاص. ففيما كان يتمتع بذكاء علمي كبير، لم يكن له من دونه أن ينتصر على كل أعدائه، أعوزته القدرة على التجريد المنطقي اعوازا تشبه تام".

ويستأنف في دراساته العلمية كما يصفها والنقدية قائلًا: "يضاف إلى ذلك أمر يود المسلمون بالطبع أن يخفوه، ألا وهو أن محمدًا كان بطبعه ضعيف العزم. أجل، لقد كان يخاف إلى درجة أنه لم يتجرأ في البدء على المجاهرة برسالته. لكن الصوت الداخلي أقض مضجعه: لقد وجب عليه أن يعظ، وأن يتشجع من حين إلى آخر كلما خائته الشجاعة، وذلك رغم التعبيرات والإهانات التي وجهها إليه حتى أصدقاؤه السابقون"⁸. ثم يضيف: "وجب على محمد، وهو مفكر بسيط، أن يعتبر كل شيء مباحًا، ما لم يتعارض هذا الشيء وصوت قلبه. وإذا لم يكن مرهف الحس ثابتته تجاه الخير و الشر، وهذا الحس لا يحفظ من العثرات الداعية إلى القلق إلا من كان على أرقى درجات الانسانية، فإنه لم يتوان عن استخدام وسائل مردولة، أجل حتى ما يسمى الخداع باسم الدين، من أجل نشر ما آمن به. وفيما أن الكتاب المسلمين يخفون هذه المعالم، يميل كتاب سيرة النبي الأوروبيون الى الانزلاق من غضب أخلاقي الدافع إلى آخر بسبب تصرفات محمد"⁹. إن هذه الفقرات على قبحها وما تحمله من جهل مقيت ومجافة للعلمية، تقدم في تلك المصادر على أنها أرقى ما يمكن أن يؤلف في هذا المجال.

ربما كانت دائرة المعارف الإسلامية من أهم المصادر الاستشرافية التي تحتل الصدارة لأن تكون عينة عن المسائل الاعتقادية والدينية ضمن المصادر الاستشرافية المعتمدة لديهم ثم لدى الحدائين من بعدهم، وتكمن أهميتها وكذلك خطرها في اتجاهها صوب المفاهيم وصوب المصطلحات الأمهات، وإلى الأصول العقائدية ممثلة في اصطلاحاتها لتأتي تعريفاتها ومفاهيمها غير التعريفات وغير المفاهيم، لتكون تلك التعريفات فيها هي الأكثر تجذرا واستئصالا للمعاني السابقة الإيمانية والأكثر تحويلا لها وهو الأعمق على الإطلاق، لأن تعريفات هذه

⁸ _نولده، تاريخ القرآن، ص 42، 41.

⁹ _ السابق، ص 43.

الدائرة تسير مع المفهوم أو مع المصطلح حيث سار، فيصير على اعتبارها الإله غير الإله والنبي غير النبي والصحابي غير الصحابي، ليحصل في النهاية إسلاما غير الإسلام بكل عقائده وشرائعه..

تعتمد دائرة المعارف الإسلامية الرؤية الاستشراقية المكرسة لديهم للدين الإسلامي عقائد وشرائع أنه من وضع (محمد) ومن ثم فإن كل مفردات العقيدة وحقائقها هي من وضعه أيضا¹⁰، فيصفون صفات الباري بالتناقض، واللجنة ووصفها من وضع (محمد) أيضا واستمد وصفها من المنمات و الفسيفساء المسيحية¹¹ وقس على ذلك.

وكذلك كان ولا يزال كتاب العقيدة والشريعة لجولد نزيهر وكذا كتابه عن مناهج التفسير عند المسلمين يجوزان أهمية كبرى عند هؤلاء الدارسين، فكتاب العقيدة والشريعة بدأ العمل على محاولة إبطال العلاقة بين الوحي والشرائع من عبادات ومعاملات، ومع أن الكتاب قد تعرض لنقد وكشف من قبل العلماء¹²، إلا طروحات جولد تزسيهر في الكتاب من نفي للعلاقة بين الوحي والشرائع تلقفه بعد المستشرقين بعض الحدائين ومنهم أركون، الذي يستعين به في تتبع الوهم الذي حصل لدى المسلمين - حسب تعبيره- فظنوا وجود علاقة بينهما! حيث يطرح تساؤلا يقول فيه: "كيف حصل أن اقتنع ملايين البشر أن الشريعة ذات أصل إلهي"¹³.

ثم ما يلبث أن يحيل تساؤله على ما يزعم أنه المنهج التفكيكي والتحليلي العلمي القادر على أن يجيب عليه، ليجد بعد إجرائه، أن المسؤولية تقع على ممارسات القضاة الذين كان عليهم مواجهة حل مسائل المسلمين، فكان منهجهم يتمثل في اسجواب القرآن من أجل استخلاص الحل منه، ثم يتحمل المسؤولية إلى جانبهم الفقهاء الأربعة بحسب وصفه طبعا، والفضل بحسبه دائما في كشف هذا الوهم يعود إلى سنده العلمي

¹⁰ _ دائرة المعارف الإسلامية أضاليل وأباطيل، ص 90، 91.

¹¹ _ المرجع نفسه، ص 92.

¹² _ محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين.

¹³ _ محمد أركون، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ط3، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي بيروت، 1998، ص 296.

من المستشرقين حين أجروا ما يسميه بالنقد التاريخي، فيضيف عن العلاقة بين الأحكام العملية وبين الإيمان بها بوصفها جاءت بوحي من الله: " هذه هي الرواية الرسمية للقصة التي كان المستشرقون قد وضعوها على محك النقد التاريخي. أثبت هؤلاء المستشرقون (غولديهر، شاخ، إلخ...) أن الأشياء قد جرت بشكل مختلف، وأن النظرية (أو الرواية) التي اخترعها التراث ليست إلا وهما، وذلك من أجل إسباغ الصفة الإلهية على قانون أنجز داخل المجتمعات الإسلامية، وبشكل وضعي كامل"¹⁴.

ويركز **الحداثيون** كما المستشرقين على دراسة الوحي (القرآن خاصة)، وعلى دراسة النبوة والنبي عليه الصلاة والسلام، ولا يتخطون على الإطلاق المصادر الاستشراقية، بل يجعلون منها قاعدة الدراسات لديهم¹⁵؛ كما هو الحل لدى هشام جعيط أو نصر حامد أبو زيد، فإن أساس المسائل المتفق عليها لدى جميعهم هو ما الوحي والنبوة وعليهما مدار مشاريعهم الفكرية سواء كانت في بداياتها، أو بعد محاولتها. والمنطلق المشترك لديهم عنها هو ما يطمحون إليه من إعادة قراءة (النص الديني) ، ونقدهما، على منوال تجربة الحداثة الغربية، وبمبررات مشابهة. (وقد سبق وأن توسعنا في هذا الموضوع في السداسي السابق، في مادة القراءة الحداثية للوحي والتراث).

المناهج المتبعة في المصادر المعتمدة وفي المسائل المدروسة

هذه المصادر المعتمدة وعلى الرغم من أنها الأكثر تجذرا في محاولة إبطال العقائد، وقطع الصلة بينها وبين من يؤمن بها، وكان لها دور مهم لدى من يريد إعادة صياغة المفاهيم والمعتقدات وإنشاء نقائضها، إلا أنها تعرضت للنقد الشديد من قبل بعض الحداثيين، ونجد من بينهم أركون الذي يعيب عليها اكتفاءها بتكريس أقدم المناهج

¹⁴ _ أركون المرجع نفسه، ص 297.

¹⁵ _ أنظر مثلا كتاب هشام جعيط في السيرة النبوية، بقسميه؛ الأول: الوحي والقرآن والنبوة، والثاني: تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، وفي كليهما لا يتجاوز ذينك المنهجين، وإن كان قد أضاف إليهما غيرهما من المناهج الحديثة..

وبخاصة المنهج التاريخي والفيلوجيا، ولم يطور المستشرقون بنظره وسائلهم المنهجية باعتماد المناهج الحديثة في العلوم الإنسانية، في حين يراها هو المناهج الأنجع في نقد التراث، وما يريدون بالتراث سوى الوحي، كما تعرضت تلك المصادر للنقد، وبوصف أصحابها بأنهم بقوا حبيسي تلك المناهج القديمة، مع أن الواقع يثبت أن إجراءاتها على التراث وعلوم المسلمين وحتى على الوحي والنبوة شكل خطرا كبيرا عليهما، وحول المعاني الإيمانية إلى معان مادية صرفة، كما أن ذلك التطبيق للتاريخية والفيلوجيا لم يكن حياديا ولا مجردا على الإطلاق، ولا تقوم على أساس علمي أو موضوعي ولم تحتفظ فيها سوى بالأشكال التي تؤدي دور التكذيب والإبطال.

ليست المصادر الاستشراقية والحداثية المحتفى بها، والمتمسك بها من قبل الحداثيين إلا عدة ذات اختصاص منهجي ومعرفي لصوغ المعارف الإسلامية، حيث وضعوا كتبنا على منوال خاص تعمل على إعادة تشكيل البنى المفهومية للعقيدة الإسلامية، يرسمون بها خطا معرفيا يعزز أساليبهم، ويسهل الوصول إلى أهدافهم بكل أنواعها؛ ومنها تمثيل الإسلام وإعادة تقديمه وإعادة التعريف به وفق ما يرغبون.

ما يميز المصادر الاستشراقية- الحداثية:

إن أهم نوع من المصادر التي يعتمدها المستشرقون والحداثيون إن لم يكن النوع الوحيد من حيث الإجراء والأهمية، إنما هو مصادرهم التي وضعوها عبر الأجيال؛ فيتبع الآخرون منهم الأول ولا يجيد عنه، ولا يخالفه في منهج ولا في أي معطى بل يقدمون جميعهم نسقا واحدا من المعرفة التي ينتجونها حول الإيمان وحول الإسلام. (طبعا المقصود هو الاستشراق المؤسسي لا استشراق الأفراد على طريقة إدوارد سعيد في التفريق بينهما)

هذه المصادر التي تتجاوز في تاريخها العقود إلى القرون الطويلة، إذا اعتبرنا ما ألفه يوحنا الدمشقي، ومعاصروه حول الإسلام والنبي (عليه الصلاة والسلام) وتنظم مع بعضها في سلاسل متصلة وتتجه إلى ما يمكن التعبير عنه بإنشاء سلاسل من المصادر التي تتناول مسائل مركزية هي لب الدين والوحي، ولذلك نجد أكثر ما يصبون عليه كل اهتمامهم وجهودهم هو القرآن؛ ليبطلوا من خلال إبطاله الإيمان بالله وما يتعلق

به، ثم النبي (عليه الصلاة والسلام)، ليبتلوا النبوة من خلاله، ثم يسهل الأمر عليهم بعد ذلك، حين يردون كل ما أخبر به وحيا هو من عنده..

إن تلك المصادر بما تناوله من مسائل اعتقادية أساسية - بما فيها فعل الإيمان والاعتقاد الذي يقدمونه على أنه بلاهة وسذاجة اختص بها العرب والمسلمون الذين صدقوا بالنبي (عليه الصلاة والسلام) وبما أخبر به، ويقدمونه بتصوير دوني، وباستخفاف كبير - إنما يهدف إلى جر المعرفة والإيمان وعلوم الدين من أرضها وفضائها الإسلامي والعربي إلى مجال وضعوه لها يتصف بانفصال كامل عن كل المعطيات الأصلية التي هي من مكوناته.

إن تركز المستشرقين ثم الحديثيين من بعدهم على جملة محدودة من المصادر والمناهج في دراسة المسائل، ولا يرون أي معرفة خارجها، وشرط تلك المصادر أن تكون من وضعهم، هو بصفة أخرى التفاف وتتركز معرفتهم حول ذاتها، فلا يأخذون إلا عن بعضهم البعض في موضوعات لا تمت لهم بصلة.

قائمة المصادر

إليك قائمة مقترحة للمصادر والمراجع التي يمكن الاستعانة بها، وهي متوفرة للتحميل في صيغة PDF، أما ما يتعلق بالحدائث فهو موجود لديكم..

- 1- آثار التبشير والإستشراق.
- 2- الاستشراق إدوارد سعيد.
- 3- أثر المستشرقين على أبناء المسلمين.
- 4- أدلة اليقين في الرد على مطاعن المستشرقين.
- 5- الاستشراق الاسرائيلي.
- 6- الإستشراق ومناهجه في الدراسات الإسلامية
- 7- الإستشراق بين الحقيقة والتضليل.
- 8- الإستشراق في السيرة النبوية.
- 9- الاستشراق في ميزان نقد الفكر الاسلامي.
- 10- الإستشراق و التاريخ الإسلامي. القرون الأولى.
- 11- الاستشراق و الخلفيه الفكرية للصراع الحضارى.
- 12- الإستشراق والإسلام.
- 13- الإستشراق والتاريخ الإسلامي.

- 14-الإستشراق والمستشرقون.
- 15-الإستشراق والمستشرقين وجهة نظر.
- 16-الإستشراق.
- 17-الإسلام في الفكر الإستشراقي.
- 18-الإسلاميات بين المستشرقين والمسلمين.
- 19-التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية.
- 20-الرسول في كتابات المستشرقين.
- 21-السيرة النبوية وكيف عرفها المستشرقون.
- 22-القرآن الكريم من المنظور الإستشراقي.
- 23-المستشرقون الناطقون بالإنجليزية.
- 24-المستشرقون والإسلام.
- 25-المستشرقون والقرآن.
- 26-المستشرقون وموقفهم من ثبات الشريعة وشمولها.

الملحق -1-

هذا ملحق لصور من مصادر المستشرقين في التأليف حول النبي عليه الصلاة والسلام،
توثيقات المصادر المعتمدة، مع عينة لإضافة بلاشير إلى سورة النجم ما ليس فيها في ترجمته للقرآن.

I. — *Bibliographie d'ensemble.*

1. V. CHAUVIN, *Bibliographie des ouvrages relatifs aux Arabes*, t. X-XI, Liège, 1907-9, 2 vol. in-4°.
2. *Encyclopédie de l'Islam*, 1^{re} éd., Leyde, 1913 suiv. et 2^e éd., Leyde, 1954 suiv. (en cours de publication). Bibliog. à la suite des articles *Arab*, *Arabiya*, *Kur'an*, *Madina*, *Mekka*, etc.
3. G. PFANNMÜLLER, *Handbuch der Islam-Literatur*, Berlin, 1925, 1 vol. in-8°.
4. J. SAUVAGEY, *Introduction à l'Histoire de l'Orient Musulman*, Paris, 1943, 1 vol. in-8°. Notamment pp. 103-114.
5. M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, *Mahomet* (dans la collection *l'Évolution de l'Humanité*), Paris, 1957, 1 vol. in-8°, pp. 663-72.

الصورة 1.

II. — *Le milieu arabe à l'époque de Mahomet.*

6. G. RENTZ, art. (Djazîrat) al-'Arab, dans *Encyc. de l'Islam*, 2^e éd., I, 550-74.

XIV

LE CORAN

7. M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, *Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades*; t. VII de *l'Histoire du Monde*, Paris, 1931, 1 vol. in-8°.
8. J. CHELHOD, *Introduction à la Sociologie de l'Islam. De l'animisme à l'universalisme*, Paris, 1958, 1 vol. in-8°.
9. J. CHELHOD, *Le Sacrifice chez les Arabes* (dans *Bibliothèque de Sociologie Contemporaine*), Paris, 1955.
10. R. DUSSAUD, *La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam*, Paris, 1955, 1 vol. in-4°.
11. H. LAMMENS, *Le Berceau de l'Islam*, Rome, 1914, 1 vol. in-4°.
12. H. LAMMENS, *L'Arabie occidentale avant l'Hégire*, Beyrouth, 1928, 1 vol. petit in-4°.
13. H. LAMMENS, *La Mecque à la veille de l'Hégire*, Beyrouth, 1924, 1 vol. in-4°.
14. H. LAMMENS, *La Cité arabe de Taïf à la veille de l'Hégire*, Beyrouth, 1922, 1 vol. in-4°.
15. F. BUHL, *Madîna*, dans *Encyclopédie de l'Islam*, 1^{re} éd., III, 85-95.
16. A. WENSINCK, art. *Mekka*, dans *Encyc. de l'Isl.*, 1^{re} éd., III, 506-18.

الصورة 2.

III. — *Biographie de Mahomet.*

- A 17. A. GUILLAUME, *The Life of Muhammad, a translation of Ishaq's Sirat rasul Allah*, Oxford, 1955, 1 vol. petit in-8°.

ÉLÉMENTS BIBLIOGRAPHIQUES

XV

18. Cl. SAVARY, *Vie de Mahomet*, en-tête de sa traduction du *Coran*, Nouvelle éd., Paris, 1956, 1 vol. in-8°.
19. E. DERMENGHEM, *La Vie de Mahomet* (dans la collection *Le Roman des Grandes Existences*), Paris, 1929.
- B 20. M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, *Mahomet*, v. ci-dessus n° 5.
21. L. HALPHEN, *Les Barbares* (dans la collection *Peuples et Civilisations, Histoire Générale*), Paris, 1956, 1 vol. petit in-4°.
22. E. PERROY, avec la collaboration de J. Auboyer, Cl. Cahen, G. Duby, M. Mollat, *Le Moyen Age. L'expansion de l'Orient et la Naissance de la Civilisation occidentale*, t. III de *l'Histoire Générale des Civilisations*, Paris, 1955, 1 vol. in-4°.
23. F. BUHL, art. *Muhammad*, dans *Encyc. de l'Isl.*, 1^{re} éd., III, 685-703.
24. F. BUHL, art. *Kor'an*, dans *Encyc. de l'Isl.*, 1^{re} éd., II, 1124-39.
25. T. ANDRAE, *Mahomet, sa vie et sa doctrine*, trad. de l'allemand par J. Gaudefroy-Demombynes, Paris, 1945, 1 vol. in-8°.
26. R. BLACHÈRE, *Le Problème de Mahomet*, Paris, 1952, 1 vol. in-8°.
27. E. DERMENGHEM, *Mahomet et la Tradition islamique* (dans la collection *Maîtres Spirituels*), Paris, 1955, 1 vol. petit in-8°.

3.1. الصورة.

XVI

LE CORAN

- C 28. A. SPRENGER, *Das Leben des Mohammad*, Berlin, 1861-5, 3 vol. in-4°.
29. W. MUIR, *The Life of Mohammed*, Nouvelle éd. par Weir, Edimbourg, 1923, 1 vol. in-4°.
30. H. GRIMME, *Mohammed*, Münster, 1892-5, 2 vol. petit in-4°.
31. L. CAETANI, *Annali dell'Islam*, t. I-II, Milan, 1905, 2 vol. in-4°.
32. NÖLDEKE, SCHWALLY, BERGSTRÄSSER et PRETZL, *Geschichte des Qorans*, Leipzig, 1919-38, 3 vol. petit in-4°.
33. T. ANDRAE, *Les origines de l'Islam et le Christianisme*, trad. J. Roche, Paris, 1955, 1 vol. in-8°.
34. M. WATT, *Muhammad at Mekka*, Oxford, 1955, trad. Dourveil, Paris, 1958, 1 vol. petit in-4°.
35. M. WATT, *Muhammad at Medina*, Oxford, 1956, trad. française, Paris, 1959, 1 vol. petit in-4°.
36. M. GAUDEFROY-DEMOMBYNES, v. ci-dessus n° 5.

الصورة. 3.2

560

SOURATE LIII

Sourate LIII.

L'Étoile.

(An-Najm.)

Titre tiré du vt. 1.

La date de cette sourate est fort discutée. Certaines données traditionnelles la feraient considérer comme médinoise, tout au moins en partie. Une autre donnée, se fondant sur le fait que la révélation du vt. 19 aurait coïncidé avec le retour des Musulmans émigrés en Abyssinie, place cette sourate vers 615 de J.-C. En fait l'examen du texte décèle trois révélations juxtaposées qui sont, dans leur plus grande partie, de la première période mekkoise.

Au nom d'Allah, le Bienfaiteur miséricordieux.

- 1 Par l'étoile quand elle s'abîme !,
- 2 votre contribule n'est pas égaré ! Il n'erre point.
- 3 Il ne parle pas par propre impulsion.
- 4 C'est seulement là une Révélation qui lui a été transmise,
- 5 que lui a enseignée un [Ange] redoutable, fort et
- 6 doué de sagacité. [Cet Ange] se tint en majesté
- 7 alors qu'il était à l'horizon supérieur.
- 8 Puis il s'approcha et demeurra suspendu
- 9 et fut à deux arcs ou moins.
- 10 Il révéla alors à son Serviteur ce qu'il révéla.
- 11 Son imagination n'a pas abusé sa vue.
- 12 Quoi ! le chicanerez-vous sur ce qu'il voit ?
- 13 Certes, il l'a vu une autre fois,
- 14 près du jujubier d'al-Montahâ,

2. *Votre contribule* = Mahomet.

3. *anî l-hawâ* « par propre impulsion ». Le terme *hawâ* qui plus tard signifiera seulement « amour-passion », paraît conserver ici sa valeur primitive : celle de « mouvement totalement irréféchi qui précipite dans l'abîme. »

11. Text. : le foie (= le cœur) n'a pas abusé ce qu'il (= Mahomet) a vu. — On sait que chez les Sémites le cœur est souvent considéré comme le siège de la pensée.

14. *sidrati l-Muntahâ* : « le jujubier d'al-Montahâ ». Les commt., suivis par les traducteurs, posent qu'il s'agit d'un jujubier merveilleux croissant à la limite du Septième

4.1 الصورة

- 15 près duquel est le jardin d'al-Ma'wā.
16 quand couvrait le jujubier ce qui [le] couvrait.
17 Sa vue ne s'est ni détournée ni fixée ailleurs.
18 Certes, il a vu [l'un] des signes les plus grands de son Seigneur.

19 Avez-vous considéré al-Lât
et al-'Ozzā

20 et Manât, cette troisième
autre ?

20 bis Ce sont les Sublimes Déeses
20 ter et leur intercession est certes
souhaitée.

21 Avez-vous le Mâle et, Lui,
la Femelle !

22 Cela, alors, serait un partage
inique !

24 L'Homme a-t-il ce qu'il
désire ?

25 A Allah appartiennent la
[Vie] Dernière et Première.

23 Ce ne sont que des noms dont
vous les avez nommés, vous
et vos pères. Allah ne fit des-
cendre, avec elles, aucune pro-
bation (*sulṭān*). Vous ne suivez
que votre conjecture et ce que
désirent vos âmes alors que
certes, à vos pères, est venue
la Direction de leur Seigneur.

Ciel. Caetan suggère avec infiniment de raison qu'al-Montahā représente un lieu dit, près de la Mekke. Psychologiquement ce détail est destiné à faire impression sur les incrédules. Il est donc beaucoup plus « en situation » que l'interprétation proposée par les commt. qui ne peut rien évoquer pour les Infidèles.

15. *Le jardin d'al-Ma'wā*. Ce dernier terme signifie : *la retraite*. Selon les commt., suivis encore ici par presque tous les traducteurs, il s'agirait d'un jardin ou Paradis. Toutefois Sprenger pense avec beaucoup de raison qu'il s'agit simplement d'une villa entourée d'un jardin, dans la banlieue de la Mekke.

16. Cette périphrase a fait croire aux commt., suivis par certains traducteurs, qu'il s'agit non d'une floraison ordinaire, mais soit du trône céleste, soit d'une lumière miraculeuse, soit de séraphins posés sur ce jujubier. Sans doute possible, il faut voir dans ce trait une précision nouvelle destinée à apporter la conviction chez les incrédules. L'expression, si l'on admet cette façon de voir, signifierait donc : à la saison où les bales couvrent le jujubier.

21. Ce vt est éclairé par la sourate LI, 39.

23. *Vous les avez... avec elles*. Ces deux pronoms représentent les trois divinités mentionnées dans les vt. 19-20. || *Vous ne suivez*. Au lieu de cette var. canonique, la Vulgate porte : *ils ne suivent*. L'idée est la suivante : « Vous êtes actuellement dans l'erreur de même que vos ancêtres qui, pourtant, eux aussi, ont reçu l'enseignement divin. »

الصورة 4.2

ملحق 2 / مطبوعة الاستشراق

ملاحظة مهمة للطلبة:

المطبوعة ليست مقررا دراسيا، ولا يتعلق بها الامتحان، وإنما ألحقتها لسد ثغرة عدم دراسة الطالب للاستشراق من قبل، وللمساهمة في تعريف الطالب به، ويرجى الالتزام والتنبه للملاحظة.

جامعة الأمير عبد القادر

كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية

مذكرة في مادة الاستشراق

L M D السنة الثالثة قسم العقيدة

من إعداد الأستاذة عبلة عميرش

محاضرة الاستشراق

تقديم

مادة الاستشراق التي ننوي التعرف عليها من خلال هذه المذكرة هي مادة معرفية وفكرية، تعنى بشكل عام بدراسة علاقة الغرب بالشرق، والشرق بالغرب، بكل ما يحمله لفظ العلاقة في طياته من إمكانات دلالية من تعارف وتدافع واختلاف و رؤى .. وما ينتج عنها من سياسات وممارسات و أفعال وردودها عبرت جميعها عن دوافع وأهداف لا تخفى وعن مرجعيات دينية وفلسفية وفكرية وعرقية ..، وكان لها من الأثر البالغ ما يشهده العالم في الشرق في كل مستوياته، وتتوجه أيضا إلى مناهج الغرب في التعامل مع الشرق وتراثه... . وسيتبين في التعريف المراد منه بما هو أدق .، وهي مادة بالغة الأهمية لكل متخصص في العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، وأهميتها أكد في الدراسات ذات الصلة بالفكر والعقيدة ومقارنة الأديان والدعوة. و هي في الحقيقة تعني كل مسلم وكل عربي وكل شرقي، بل ربما تعني كل غربي أيضا ..

ذلك أنها مادة تعنى بنشاط في غاية الأهمية؛ بحثي وعلمي وفكري . أو أوسع مجالا . ، استغرق قرونا من الزمن، كان من قبل باحثين غربيين، انتخبتهم مؤسسات مختلفة ينتمون إليها، ولدوافع كثيرة، ليجمعوا جهودهم لدراسة عالم الشرق، وبالأخص لدراسة الإسلام وعلومه، والعربية وعلومها، وكما كانت دوافعهم كثيرة كانت آثارها على هذا الشرق أكثر وأوسع؛ على المستوى العلمي والفكري والسياسي والإنساني، وتمثلت في الاحتلال والهيمنة وممارسة السلطة بأنواعها . .

وقد وُضعت هذه المادة لتعين الطالب في تكوين خلفية علمية وفكرية لديه وليتعرف من خلالها على مجالات من الممارسات الفكرية والوسائل المنهجية . على علاقتها . لفئات متنوعة من باحثي الغرب حين أتيح لهم تناول الشرق وعلومه وحضارته بالدراسة، ثم على أثر هذه الدراسة، كما أنها وُضعت لتساهم في تنمية شخصية الطالب العلمية وزيادة الوعي بالذات و بالأمة . كأضعف التزام تجاهها .، وكذا بحضارته وبواقعه وبما يطلب منه فيه، وليكون مدركا لما يواجهه دينه وأمته من تحديات وأخطار، عسى أن يكون ذلك باعثا له

ليفعل حضوره في واقع أمته إذ يرجى من دراسة هذه المادة أن تساعده في فهم حالتنا الفكرية والسياسية، وفي التعرف على موقعنا في أمتنا وعالمنا .

هذا ، وتطلعنا دراسة الاستشراق على بعض ملامح التدافع الحضاري بين عالم الشرق وعالم الغرب، وعلى سنن ذلك التدافع، وتطلعنا على دوافع وأهداف وحتى أخلاق هذين العالمين ..، ثم على نظرة الغربي للشرقي التي تكونت كأثر لهذا النشاط، وكيف تم تكوين الانطباع العام وفتحها، ثم تعليمها وتلقينها لأجيال بكاملها، بل للأمم بأكملها واستخدام تلك الصورة في تشكيل الرأي العام الغربي الذي يساهم في القرارات والمواقف السياسية التي تؤثر في مجرى العالم بأسره ..

إن الاستشراق ما هو إلا وجه من وجوه متشابهة إلى حد بعيد . من دون أن ننفي الاستثناءات النادرة . لممارسات الغرب تجاه الشرق ربما تعيننا في مقارنة إن شئنا إجراءاتها بينها وبين مواقف الشرق من الغرب ..

وإذ أتقدم إلى الطالب في كلية أصول الدين بهذه المحاضرات في مادة الاستشراق، أود أن أشير إلى بعض الملاحظات حول طبيعة المادة العلمية لهذا المقياس ومكان وجودها؛

أما المادة العلمية التي نعتمدها في دراسة هذا المقياس فهي تستوعب كلما تناولته الدراسات الاستشراقية من تراث أو مجال أو رؤية للشرق أو سياسة تجاهه، مع كيفية دراسته، ثم يعيننا كل بحث تناول بدوره الدراسات الاستشراقية بالتحليل والنقد والدراسة والتقويم ..، مهما كان مصدره . ن قبل غربيين أو شرقيين .

ومن ثم يمكن القول إن المادة العلمية للاستشراق واسعة جدا، وترتبط بمجالات علمية كثيرة، كما تستوعبها تخصصات كثيرة (تقريبا كل العلوم الانسانية)، وعليه فالاستشراق ميدان واسع ومهم للبحث؛ لانفتاحه على كثير من فروع المعرفة وعلى العلوم الانسانية خاصة ..، وهي أيضا مادة سهلة المآخذ للدارسين، تتنوع المواد المتناولة فيها كتنوع وتباين عالم الغرب وعالم الشرق، ثم لتنوع الدوافع الباعثة لهم واختلاف الثقافات ولوجود عوامل كثيرة تجعلها بحق موضع جدل شديد؛ تتعلق بالموضوعات التي عكفت عليها فئات المستشرقين وتمثل في مصادر تراث الأمة التي تمتد في عمق ذاتها وتشكل معناها وقوام شخصيتها ..، كما تتعلق هذه العوامل بالباحثين المستشرقين و بموضوعيتهم واستقلالهم العلمي ودوافعهم وكل ذلك كان مثار جدل ونقد لاذع، وتعلق أيضا بالمنهج والأساليب التي اعتمدها في الدراسات التي نوقشت

علميتها فكانت موضع شك بل نفي غالبا، ومنها أيضا أثر النشاط الاستشراقي على الشرق وحتى على الغرب وفي رؤية كل منهما للآخر، وتعلقت بموضوعات كثيرة أخرى .

وفيما يخص مصادر المادة فيمكن الإشارة إلى أصناف منها؛

*صنف يتمثل في المصادر التي ألفت لتعنى بشكل مباشر بالاستشراق تسمية ومضمونا؛ وتتناول الظاهرة الاستشراقية بالتفصيل أو بعض جوانبها ..

*وصنف آخر ؛ وهو مصادر تعنى بدراسة الاستشراق وهي وإن لم تتسم بمصطلح الاستشراق إلا أنها في مضمونها تتناوله بشكل متخصص وعميق، ومنها أيضا دراسات ينتفع بها في دراسة الاستشراق وإن كانت لم تؤلف في مقصده بل في سياقات أخرى، ولكنها تشتمل على مباحث مهمة لا يمكن إهمالها وينبغي اعتمادها في استقاء المعلومات وحتى في بناء المفاهيم ..

*وصنف آخر مهم جدا ؛ وهو ما ألفه المستشرقون أو إنتاج المستشرقين عموما وفيه تفصيل له أوانه ومساحته في مقررنا .. وهو يعيننا من حيث كونه مادة أساسية وموضوعا للدراسة، وهي أيضا وثيقة بحث تحكي كل نتاج المستشرقين وأنواع الدراسات ومناهج المستشرقين بكل أطيافهم ..

هذا، بالإضافة طبعا إلى الموسوعات والمعاجم التي تعين في كل بحث .. وتجدر الإشارة ونحن في سياق الحديث عن أنواع المصادر أنها جميعها في متناولكم، ويوجد ما يكفي للبحث وزيادة في مكتبة جامعتنا ..

ومن المهم الإشارة إلى أن هذه المادة العلمية الواسعة والضخمة لا يمكن إجمالها ولا جمع أطرافها المترامية في هذه الصفحات القليلة؛ ولكن هذه محاولة صياغة خطوات وإشارات منهجية لتسهيل _ربما_ البحث والتوسع للطالب وتوضح له الطريق، وتعطيه المفاهيم الأساسية والمفاتيح لدراسة المادة...

وأما موضوعات المادة المقررة فهي كما يأتي:

*/تعريف الاستشراق

*/الجذور التاريخية

*/أهداف الاستشراق

_ الهدف الديني

_ الهدف السياسي والاستعماري

_ الهدف الاقتصادي

_ الهدف العلمي

_ الهدف الفكري والثقافي

*/ مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية

_ السمات العامة للمنهجية الاستشراقية

_ منهجية المستشرقين في دراسة القرآن الكريم

_ منهجية المستشرقين في دراسة السنة النبوية الشريفة

_ منهجية المستشرقين في دراسة السيرة النبوية المطهرة

_ منهجية المستشرقين في دراسة الفقه الإسلامي والتشريع والقانون والنظم

_ منهجية المستشرقين في دراسة التصوف الإسلامي

_ منهجية المستشرقين في دراسة علم الكلام

*/ مدارس الاستشراق واتجاهاته:

_ الاتجاه الديني، _الاتجاه الإلحادي، _الاتجاه العلماني

*/ مواقف العلماء والمفكرين المسلمين والعرب من الاستشراق، أو رؤاهم وتقويماتهم

للاستشراق

_ أصناف المستشرقين، _مواقف المسلمين والعرب منهم:

أ/ موقف القبول المطلق، ب/ موقف الرفض، ج/ موقف المواجهة

* / قنوات المستشرقين نشاطاتهم ووسائلهم في الانتشار

خاتمة (ملمح من واقع الاستشراق).

تعريف الاستشراق

تنوعت التعريفات التي وضعها المختصون في مجال الدراسات الاستشراقية؛ ويرجع ذلك التنوع والكثرة و الاختلاف إلى اختلاف مفاهيمهم ورؤاهم له؛ حيث يضع كل منهم في تعريفه ما يعكس رؤيته، ويبين فيه موقفه منه، ولأن التعريف وتوضيح المفهوم مهم، وينبغي عليه كل ما يأتي بعده، فسيأتي بشيء من الإسهاب.

من تلك التعريفات الواردة في المعاجم . على سبيل المثال لا الحصر . ما ينص على أن الاستشراق "يعنى بكل ما يتعلق بعادات وتقاليد شعوب الشرق، ومن ثم فإن المستشرق هو الدارس أو الباحث في الموضوعات الشرقية"¹⁶ ، ويطلق أيضا على "العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من قبل علماء الغرب"¹⁷ و "المستشرقون هم الكتاب الغربيون الذين كتبوا عن الفكر والحضارة الإسلامية"¹⁸ ، ويعرف أيضا بأنه "منهج غربي في رؤية الأشياء والتعامل معها يقوم على أن هناك اختلافا جذريا في الوجود والمعرفة بين الغرب والشرق وأن الأول يتميز بالتفوق العنصري والثقافي على الثاني"¹⁹ ، وقريب منه تعريف أحمد غراب الاستشراق بأنه "عبارة عن دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون في الدول الاستعمارية للشرق بشتى جوانبه؛ تاريخه وثقافته وأديانه ولغاته ونظمه الاجتماعية والسياسية وثرواته وإمكاناته من منطلق التفوق العنصري والثقافي على الشرق وبهدف السيطرة عليه لمصلحة العرب، وتبرير هذه السيطرة بدراسات وبحوث ونظريات تتظاهر بالعلمية والموضوعية"²⁰ .

__ فتحية النبروي، الاستشراق، ص 13¹⁶

__ ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، ص 20¹⁷

__ المرجع نفسه، ص 20¹⁸

__ سعدون الساموك، الوجيز في الاستشراق، ص 15¹⁹

__ أحمد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق ، ص 7 نقلا عن الساموك، المرجع نفسه، ص 15²⁰

وليس بعيدا عن هذا المفهوم يقدم إدوارد سعيد مفهوما علميا عميقا للاستشراق ينبىء عن عمق تحليله، حيث يعرفه بأنه "نظام من الأفكار حول الشرق" ويصفه بأنه نمط من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه"²¹، وفي مؤلفه الفريد . الذي أحدث نهضة ونقله فريدة في البحث في هذا المجال وطوره وأثراه . "الاستشراق"، وفي سياق تحليل مفهومه يبين أنه أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وإعادة بنائه وامتلاك السيادة عليه، وفي كل تعريفاته نلاحظ أنه يطلق عليه وصف أسلوب، ونمط، ونظام من الأفكار وخطاب، ولا يعدُّ الاستشراق علما لأنه يعكس صورة متخيلة ومتوهمة وغير صحيحة عن الشرق؛ ويشاركة الرأي باحثون آخرون إذ يصفون الاستشراق عند تعريفه بأنه نشاط، ودراسات، وتيار، وحركة، وظاهرة .. وقلما نجد من يعرفه بأنه علم، لافتقاره عناصر مهمة ينبغي أن تكون في العلم؛ باعتبار أن موضوعه مجهول وهو ما يذهب إليه إدوارد سعيد، وكذلك الحال في مناهجه، فهي إذا ما أخضعت للمعايير العلمية لقيت نقدا شديدا، ثم إنه غالبا ما يخلو من الحياد والموضوعية كما بين أحمد غراب فيما سبق .

وقد جاء في تعريف آخر بأنه مصطلح "يشمل العناية بكل ما هو مشرقى حضارة وتاريخا ولغة وآثارا وسياسة واجتماعا واقتصادا . فضلا عن العناية بدراسة أديان الشرق منذ العصور القديمة وصولا إلى الإسلام الذي ركز عليه المستشرقون دراسة ونقدا وتحليلا وتشويها وتحريفا بشكل قد يكون متعمدا في كثير من الأحيان"²² ، ويثير التعريف نقطة غياب العلمية وسوء النية فيه .

وإذا ما أردنا نعمم تعريف الاستشراق ونفصله عن أهدافه وتوجيهه المؤسسي المغرض، فيمكن اختيار التعريف؛ "هو العلم الذي يدرس لغات الشرق وتراثهم وحضارتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم ، ويدخل ضمن معنى الشرق أية منطقة شرقية لكن (المصطلح) يعني ما له علاقة بالدراسات العربية أو اللغات التي تؤثر عليها العربية كالفارسية والتركية"²³

الجذور التاريخية للاستشراق

_ إدوارد وديع سعيد، الاستشراق _ المعرفة، السلطة، الإنشاء ص 120²¹

_ فنيحة نراوي، الاستشراق، ص 63. ²²

_ الساموك، الوجيز في الاستشراق، ص 16. ²³

مثلما اختلفت تعريفات الاستشراق من قبل الباحثين، كذلك اختلف تحديد كل منهم لبداية لظهوره، وهو بطبيعته يصعب ضبط تاريخ أول ظهوره، لكنها بدايات أو تحديدات معدودة من قبل الباحثين الشرقيين والغربيين، ولا بد من الإشارة إلى أن التأريخ للاستشراق يتبع تعريفه، ويرتبط به في مضمونه ارتباطا قويا، ومن ثم فالتأريخ للاستشراق يعكس رؤية وموقف دارسه منه ..، ولذلك فإننا نجد في دراستنا له تألفا بين الجذور التاريخية ودوافع الاستشراق؛ فهما متلازمان ولا يمكن الفصل بينهما، والخلفية الدينية والفكرية التي اعتمد عليها منذ ظهوره من أبرزها، ومن ثم فإن الباحثين يجمعون على أن تاريخه وجذوره أعمق من أن تعود إلى القرن 19، والعرب منهم بين من يعيده إلى وقت مبكر من تاريخ الإسلام، ونلاحظ أنهم لا يفصلون الاستشراق في تعريفه عن أهدافه وخلفياته المتعددة؛ الدينية و السياسية والعسكرية والفكرية. . باعتباره نشاط موجه ومنظم لتحقيق أهداف محددة، وهؤلاء كما كان تعريفه عميقا ومرتبطا بعلائقه كذلك كان تاريخه لديهم .ويحددون له مرحلتين مر بهما، وفي كلاهما كان موجهها من قبل جهات دينية؛ وكان عملا كنسيا مؤسساتيا محضا.

المرحلة الأولى: وهي مرحلة نقل فيها الكنسيون علوم الكنيسة من حاضرة العرب بغداد وغيرها من البلدان العربية إلى روما، حيث كانت الكنيسة في احتضار فكري بينما كان المسلمون قد نشروا الإسلام وازدهرت حضارته التي انفتحت على علوم باقي الحضارات فترجمتها وأضافت إليها، ولذلك كانت حاضرتها قبلة لكل طالب معرفة ووفد عشرات من كتاب الكنيسة لنقل العلوم ويمكن عد رحلاتهم تلك موجة استشراقية بالمعنى الاصطلاحي للفظ، وأما نتائج الحملة هذه فكانت على خلاف الموضوعية وعلى النقيض من النقل الصحيح؛ حيث نقلوا صورة أكثر ما تكون تشويها عن الإسلام والمجتمع الإسلامي وقد دوّنها يوحنا الدمشقي الذي عاش في العصر الأموي في دمشق، وجزء آخر من الصورة في رسالة منتحلة نشرها مؤلف يدعي أنه كان مسلما وارتد عن الإسلام وآمن بالمسيحية اسمه عبد المسيح بن إسحاق، و أعاد المستشرقون نشرها في القرن 19 بلندن²⁴. وأما أهدافها فهي غير خافية فيأتي تفصيلها في موضعه.

المرحلة الثانية وهي المرحلة التي يتفق الجميع بأنها حركة استشراق بالمعنى الذي اصطلح عليه والتي بدأت بشكل واضح في نهاية ق 17 وخدموا فيه أغراضا دينية وسياسية ومنها على سبيل المثال التبشير بالمسيحية والتمهيد للاستعمار ..، ومن أبرز أعلام هذه المرحلة ومؤلفاتهم هنري بريد الذي ألف كتابا عن

— سعدون الساموك ، الوجيز في الاستشراق،ص22. 24

الرسول الكريم، وكان كاهنا في نورويج ببريطانيا(1681)، وكذلك المستشرق الإنكليزي مؤلف كتاب تاريخ العرب بجزء ين قسيس "سوانسي" (1720)، وغيرهم من رجال الدين ولأنهم أقاموا في أرض العرب فقد طوروا مقدرتهم اللغوية، ومؤلفاتهم عن الإسلام والرسول تجدونها بمعلومات أوسع في المراجع المذكورة في الهامش²⁵، ونجحوا ثقافيا وسياسيا أكثر من نجاحهم دينيا حيث أفلسوا تماما. (والتفصل في موضعه بحول الله).

وأبرز سمات هاتين المرحلتين ما نتج عنهما من: _ تكوين صورة مشوهة عن الإسلام في أوروبا و الغرب، _ تلك الدراسات كونت شكلا منهجيا وإطارا فكريا في أوروبا عدها جميع من جاء بعدهم مسلمات وحقائق على الرغم مما توصل إليه كثير منهم من الحقائق، _ الحقد العميق الذي طبع العمل الاستشراقي رغم ما يدعونه من موضوعية وتجرد علمي.

وأما من يتناول مفهوم الاستشراق من الباحثين باعتباره كل علاقة للغرب بالشرق فإنه يعيده إلى فترات أعمق في تاريخ البشرية؛ ويرى أن مراحلها الأولى تأسست منذ أولى المعاملات ذات الطابع التجاري بين الشرق والغرب في أيام الكنعانيين أي إلى حوالي القرن السادس قبل الميلاد، وعلاقة الفرس باليونان وما كان بينهما من حروب أرخ لها المؤرخ الكبير "هيرودوت"، وجمع معلومات كثيرة وقيمة عن الشرق وزار أرض الرافدين ومصر وبلاد الشام والجزيرة العربية وسكانها وعاداتها وتجارها وسلعها ..، ثم حروب الإسكندر الأكبر أواخر القرن الرابع واحتلاله آسيا الصغرى والفرس ومناطق كثيرة حتى وقف على أبواب الصين، وفيها تعرف على بلاد الشرق، ثم من بعده الإسكندر المقدوني واجتياحه الشرق بعد أن احتل الهلال الخصيب ومصر، وأرسل بعثات استطلاعية بحرية وبرية نقلت صورة الشرق تمهيدا لغزوه، ومما نتج عنه التأثير والتأثر بين الشرق والغرب؛ ومن مظاهره أن الإسكندر أرسل ألواحا من بابل إلى بلاد اليونان لترجم، واشتملت على علوم الفلك وتقويم البلدان وتعرف الغرب في المقدوني على علم الشرق وعلمائه، ويشار هنا في استطراد يسير أن نابليون قلد الإسكندر المقدوني حين غزا الشرق 1898، وجلب معه فيلقا كاملا من العلماء فرنسيين وأمرهم بوضع كتاب "وصف مصر"، ثم تتابع الاتصال والتأثر بين الحضارات الإنسانية الشرقية والغربية وتكونت معها الدراسات الاستشراقية، ومنها أيضا دخول اليونان إلى البحار العربية الجنوبية والبحر الأحمر والخليج العربي، ومعها إقامة العديد من فلاسفة اليونان بالإسكندرية، وأثرت على تطور

_ المرجع نفسه، ص 24، فتحية النبراي، ص 18. و يؤرخ نجيب العقيقي للاستشراق في موسوعته "المستشرقون".²⁵

الفلسفة بها، وكذا إنشاء المدارس بالرها وجنديسابور وكان أثرها تفاعلا كبيرا، مثاله تأثر كسرى أنوشروان(ق6) بالثقافة الهلينية إبان حربه في سوريا ضد الرومان، واستقدم الفلاسفة فتطور علم الطب إلى جانب الفلسفة، ومن أبرع أولئك الحارث بن كلدة، وابنه النظر بن الحارث وكان يتقن الفارسية، وكان من أشد أعداء النبي _ عليه الصلاة والسلام _ ويجادل أن يعارض القرآن بقصص فارسية ك"بندار وإسفنديار" ²⁶، وكانت تلك المدارس بمثابة مركز للنفوذ المسيحي، ومظهر تفاعل بين الإغريق والشعوب السامية.

أما "في الغرب المسيحي يؤرخ لبدء الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي عام 1312م بتأسيس عدد من كراسي الأستاذية في العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وأفنيون وسلامنكا" ²⁷. وعليه ترجع بعض البلدان الأوروبية تاريخ الاستشراق إلى القرن 13م وانتشر الاستشراق في أوروبا بعد فترة الإصلاح الديني، والسبب المباشر الذي دعا الأوروبيين إلى الاستشراق هو ما تركته الحروب الصليبية من آثار مدمرة عميقة، وحين جاءت حركة الإصلاح الديني شعر المسيحيون بمحاجات ضاغطة لإعادة النظر في شروح كتبهم الدينية.. فاتجهوا إلى الدراسات العبرانية، وهذه الدراسة فتحت الباب أمام الدراسات الإسلامية التي اهتمت بها الأقسام المتخصصة في الكنيسة البابوية ورعتها الجامعات الصليبية بعد ذلك في ظل الفراغ الذي كان من نتائج ركود الفكر الإسلامي والذي هباً الفرصة للصليبية أن تعمل تحت الاستشراق. وفي كل تاريخ للاستشراق تبرز الخلفية الفكرية المتكئة على الصراع الحضاري بين الإسلام والديانتين المسيحية واليهودية ²⁸. وهي خلفية أظهر من أن تنكر، فالاستشراق بدأ من الأديرة والكنائس، وتشكلت أولى بعثاتهم المؤسسة من رجال الدين المسيحي، وهم رهبان وقساوسة. ولأن دوافع نشأته ترتبط بأهدافه بجبل قوي، فستزداد هذه الخلفية وضوحا وجلاء عند الحديث عن أهدافه. ومن المهم جدا، ومما لا ينبغي إغفاله عند الحديث عن تاريخ الاستشراق ومساره التعرض لتحليل إدوارد سعيد الذي يعد الاستشراق شبه اختراع أوربي، ففي فصل "الجغرافيا التخيلية وتمثيلاتها" من كتابه "الاستشراق" وأسماه شرقنة الشرق، _ وفق اختيار المترجم طبعا _ وهو في غاية الأهمية، باعتباره يكشف عن

_ ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، ج1، وفيه تفصيل طويل لتاريخ الاستشراق في كل أطواره ولكنير من أعلامه. 26.

_ إدوارد سعيد، الاستشراق المعرفة السلطة الإنشاء، ص80. 27.

_ صابر طعيمة، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ص74. 28.

مجال آخر من التأسيس المنهجي للاستشراق، وهو اتخذ الشرق كميدان للدراسة والاستثمار ؛ فيقول : " لا شك شأن ميادين الدراسة لا توجد بذاتها بل تخلق، ثم تكتسب انسجاما داخليا وتكاملا مع مرور الزمن"؛ ومن ثم يبين أن التوجه إليه بتحديد ميدان من ميادين الدراسة يجب أن يوضع بالحسبان، ثم يضيف "غير أن أي مسرد للاستشراق ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار _ لا المستشرق المحترف وعمله فحسب _، بل كذلك المفهوم ذاته لوجود ميدان من ميادين الدراسة قائم على وحدة جغرافية وثقافية ولغوية وعرقية اسمها الشرق " ذلك أن وجود "تخصص بحثي بوصفه حقلا جغرافيا هو في حالة الاستشراق ذو دلالة جليّة إذ لا يحتمل حقلا مناظرا اسمه الاستغراب ومنذ هذه اللحظة يصبح الموقف الخاص، بل ربما الشاذ، للاستشراق واضحا"²⁹؛ وفي تحليله هذا الذي انفرد به، يكشف عن كون الاستشراق دراسات وممارسات أحادية الجانب، تخلو من التناظر والتكافؤ.. ناهيك عن الموضوعية وأخلاقيات البحث . ، لأنها ينعدم فيها أساسيات منه كإمكان تعدد حقوله، أو تبادل وظيفة الدارس والمدرس؛ فيصبح الغرب مثلا ميدانا للدراسة والشرقي هو المتخصص فيه، ومن ثم فهو أشبه ما يكون بالطرفة في مجال البحوث الفكرية والإنسانية، ولذلك فلا يمكن إخفاء خلفية المواقف الباعثة له ولا دوافعه ولذلك نجد أنه يشير إلى بعضها في قوله "أما الاستشراق فإنه ذو طموح جغرافي وافر" . . ، وهذا بلا شك بعض من أهداف الاستشراق التي نتعرف عليها فيما يأتي . .

أهداف الاستشراق³⁰:

إن دراسة حركة الاستشراق عموما بينت من خلال تحليل ظاهرتيه ومفهومها وسير نشاطها خلفيته المتعددة والخطيرة، والتي ترتبط بشكل بديهي مع أهدافه وأبعاده الكثيرة والتي كشف عن كثير منها المختصون، خلال ما شهده مساره وعالم الشرق وما زال يشهده على جميع مستوياته الدينية والسياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وهي بلا شك مستويات متداخلة وجميعها تتوجه نحو الإنسان العربي المسلم، وأرضه ومقوماته من كنكم الردين وتراث ومُقدّرات .

__ إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 80. 29.

- وبإمكانكم التوسع في المصادر المطبوعة الآتية ، "تاريخ حركة الاستشراق" .و "مؤسسات الاستشراق www.madinacenter.com ³⁰ والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين" وكذا على الموقع

ونجد لدى بعض الباحثين الجمع بين التاريخ والأهداف في دراسة الاستشراق للتداخل بينهما ولأن كل مرحلة من تاريخه طغى فيها غرض أكثر من غيره، ولكن ذلك يكون فيه إسهاب كبير، ويمكن إجمال هذه الأهداف فيما يأتي مع محاولة تلخيصها والإحالة إلى مواضع التوسع لأن هذه الأهداف أكثر تشعباً من أن تتسع لتفصيلها هذه الصفحات.

الهدف الديني:

الهدف الديني هو أهم وأوضح أهداف الاستشراق _ دون التقليل من بقية الأهداف _، ويتعرف على الهدف بأنه ديني من خلال البواعث عليه، والعمل الموجه في مجال الدين، والهات الراعية والداعمة والموجهة، ثم من تسديد كل ذلك نحو موضوعات أو كيانات دينية بعينها. ومن ثم أكد الباحثون على الهدف الديني للاستشراق؛ ويقصد به اتخاذ الإسلام كغرض ومرمى من جهة، وخدمة ديانتهم نصرانية كانت أو يهودية، وإن كان صراع المسيحية مع الإسلام أطول وأقوى لطبيعتها التبشيرية ثم لواقعها رقعتها الجغرافية وواقعها السياسي، بخلاف صراع اليهودية مع الإسلام، فهي تخلو من التبشير، وحين انتشر الإسلام انضوت تحت سلطته. وربما كان ذلك أخطر عليه. حتى ظهور الصهيونية³¹، وهذا الهدف مفروغ منه فلا نجد من يقول بانعدام العامل الديني من الاستشراق باعتبار كان أو هدفاً في كل مرحلة منه؛ فالمرحلة الأولى التي بدأ فيها الاستشراق، تميزت بتولي الكنيسة إرسال بعثات اختارتها متكونة من عشرات الرهبان والقساوسة وكان نشاطهم متوجهاً نحو نقل وترجمة تراث المسلمين، ورغم أنهم في بداية الأمر كان يدفعهم الإعجاب بحضارة المسلمين إلا أنهم نقلوا صورة خاطئة بسوء نية واضحة، وشوهوا صورة الإسلام وأهله، وزوّروا حقائق الوحي، وقدموا أسوأ تصور عن الإسلام والنبي. عليه الصلاة والسلام. .

ولا شك أن الصورة الأولى التي نقلت عن الإسلام والمسلمين كانت تؤسس لتصور أمة وثقافة بكاملها، ولسكان رقعة جغرافية واسعة، ورغم ما شهدوه من تسامح المسلمين مع باقي الشعوب والأديان والحضارات، وشيوع العلم والتعليم بينهم، فلم يمنعوهم مقيماً ولا وافداً، وسمحوا لهم بنقل ما أمكنهم مما دون من علوم أنشئت وأخرى طورت إلا أنهم ما كانوا أمناء على حقيقة الإسلام وأخلاق المسلمين، وبإمكان

_ يمكن الاطلاع على هذه الإشارة بتوسع عند، ساسي سالم الحاج، المرجع السابق، عند حديثه عن مراحل الاستشراق السياسية.³¹

الطالب أن يرجع إلى المصادر³² التي نقلت كيف صوروا المسلمين ونبههم . عليه أشرف الصلاة والسلام .، ولا شك أن هذا مرده اختلاط دواعيهم النفسية تجاه الإسلام والمسلمين وحضارتهم، وإلا فكيف يستقيم الجمع بين احتقار علومهم، والإعجاب والإقبال على علوم المسلمين، ثم تشويه صورتهم بالطعن والثلب فيهم وفي دينهم . .

وكذلك الحال في المرحلة المتأخرة من الاستشراق؛ فلم تنفصل الجهود فيه عن بواعثها الدينية إذ كانت أغلب البعثات موجهة في بداية المرحلة وأثناءها من قبل الكنيسة³³، ويؤكد ذلك كل من أرخ للاستشراق ومنهم "مارسال بوزار" الذي يقول: " قام بعض الاختصاصيين بدراسات علمية وشكلوا تدريجياً ما تواضع الناس على تسميته بالاستشراق. كان الباعث في القرن 16 تبشيراً فقد كان لا بد من معرفة الإسلام معرفة جيدة لمخاربه محاربة جيدة على مستوى العقيدة"³⁴، ويمكن الإشارة إلى هذه الأهداف البارزة _ بإجمال من غير تحديد زمني لمرحلتها _، في النقاط الآتية ؛

*/ صد الإسلام في الغرب، والحد من انتشاره، ومنع ووصوله إلى الإنسان الغربي.

*/ الرغبة في نشر المسيحية في العالم الغربي ثم الشرقي، وفي القبائل العربية ثم المسلمين، أو بعبارة أخرى ووفق تعبيرهم هداية المسلمين إلى محاسن المسيحية، ولأن الإسلام في رأيهم هرطقة مسيحية لأنه أصل كل هرطقة، وهو خطر على المسيحية.

*/ ولأن أهداف الرهبان هذه لا تتحقق إلا بتعلم اللغة العربية فقد سعى الرهبان إلى تعلمها وتعليمها، لأنها في رأيهم _ وهو هنا صحيح، لكن غيرهم في مواضع أخرى يعود ليقول من شأنها وبصفتها بالعجز عن مواكبة التطور */ أداة فهم الدين الإسلامي ثم نقضه، كمرحلة وهدف لاحق، من أساسه، ورد أتباعه إلى ديانتهم³⁵. ، وفي المقابل الاجتهاد في رد المسلمين عن دينهم . .

_ يورد إدوارد سعيد في "الاستشراق" تصوير دانتي للنبي عليه الصلاة والسلام، ص 96، 97. ³²

_ الساموك، ص. 19³³

_ علي النملة، مصادر معلومات، ص 16. ³⁴

_ ساسي الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، وانظر فصل المرحلة الدينية من الاستشراق ففيها تفصيل كبير. ³⁵

*/الحملات الصليبية كانت أكبر مظهر لدينية الأهداف الاستشراقية، ثم هي بدورها بعثت فيهم الرغبة في إعادة النظر في شرح كتبهم على أساس التطور الحديث³⁶ .

*/ من أهداف أو مشاريعهم الواضحة؛ فهم القرآن الكريم ثم الرد عليه، وهو من أهم مشاريع الراهب "بطرس المبجل" أو "المحترم" بحسب الترجمات المختلفة_ وحياته بين (1092_1156) وكان من أكبر أعلام هذه المرحلة، كان رئيس دير كلوني الشهير، وكان مشروع ترجمة القرآن معلما بارزا في الدراسات الإسلامية في أوروبا، ثم إنه كان يتطلب اللغة العربية التي حرصوا على اكتسابها كل الحرص، وأنجزت الترجمة سنة (1143).. ولذلك قرر كثير من الباحثين أن التبشير كان أصلا للاستعمار لا العكس³⁷، باعتباره كان سببا له.

وفي العموم فإن ما يحدد الهدف الديني عند المستشرقين هي المجالات التي يتوجهون إليها بالدراسة، ثم بالظعن وإثارة الشبه، قصد تسفيه ذلك المجال؛ كما كان الحال مع السنة الشريفة بمحاولة ردها إلى الوضع والانتحال، لأنهم يدركون تماما قيمتها ومحلها من الوحي ومن التشريع، ومع الفقه الإسلامي وطعنهم في أصالته،_ ولكل منهما موضعه الخاص به _.

*/ والنيل من الإسلام عموما كان غرضا للمستشرقين، وكل ما يبلغ إليه كان مسلكا لهم، ورغم الجهد الضخم الذي بذل على مدى قرون طويلة في النقل والترجمة، إلا أنه انتهى إلى صورة مفرغة من الحقيقة، ملامى بالزيف والأحقاد الباطنة والظاهرة، وتلك بعض المطامح الدينية تجاه الإسلام كانت في كل مرحلة منه بلامح متشابهة، وما زالت ..

الهدف السياسي والاستعماري:

إن سبب الجمع بين الهدفين هو اجتماعهما بطبيعتيهما، والمجال المشترك واسع بينهما، أو هي بالأحرى علاقة احتواء، فإذا كان في الاستعمار بسط سلطة واحتلال مباشر على الطريقة التقليدية_ وهو هدف في ذاته، ومجال ومظهر للهدف السياسي _ ، فلدى السياسة مجال أوسع ووجوه أخرى؛ إذ يمكنها بسط السلطة باستعمار غير مباشر وأقل تكلفة كما سيأتي، والسبب الآخر في جمع العنصرين هو محاولة

_ صابر طعيمة، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ص 101³⁶

_ ساسي سالم الحاج، المرجع السابق، فصل الاستشراق الديني. ³⁷

الاختصار،، وسيكون موضوعنا في هذا العنصر التعرف على الأهداف السياسية والاستعمارية للاستشراق كمؤسسة تابعة لسلطات دولتها، تخدم مصالحها مهما كانت، وكيفما كان نوع الخدمة المطلوبة، ثم التعرف على الأساليب السياسية التي تعتمدها لبلوغ أربها، وعلى أدواتها فيها، وهنا لا بد لنا من الوقوف للتأمل والتفكير في موقف المستشرق، ودوره، وموقعه من هذا العمل أوفيه، إذ تسند إليه مهام ينفذها لحد التفاني، لخدمة مصالح ومطامح مادية توسعية، تسحق الإنسان وتسلب ممتلكاته وتغصب أرضه، وهي تتنافى في العقل والعرف البشريين مع قيم الإنسانية والأخلاق والمعرفة والثقافة التي ينتسب إليها ويعمل في حقلها، إذ _ ينكشف _، أو يتحول إلى ذلك "الموظف أو المراقب إداري"³⁸، أو متعدد الوظائف عند دولته، و الذي يعيننا هنا في نموذج هذا المستشرق هو علاقة المثقف بالسلطة، هل هو (قبل نعته بالمثقف) مثقف؟ وكيف هي طبيعة علاقته هذه بسلطته الاستعمارية العاشمة منذ القرون السابقة وإلى يومنا هذا؟ والجواب وإن لم يأت في العرض بشكل صريح، فإن في نشاط المستشرقين، وفي وظائفهم في الشرق أوضح الجواب وأبينه.

وإذا كان الغرض الديني في الاستشراق مهما _ كما مر في سابق الحديث _ فإن الغرض السياسي وكذا الاستعماري لا يقل أهمية عنه، إن لم يُفقه؛ لطبيعة المطامع المادية للغرب، والتي لا تتحقق إلا بطريق الاحتلال، خاصة وأن الشرق ذا ثراء لا يضاهي ..، وقد التقت عند الغرب المصالح الدينية مع الاستعمارية، فكان التبشير جزء من السياسة وهو من أبرز الأساليب المعتمدة من قبل الغرب، ونلاحظ أن كلاهما يفيد من الآخر، فكما يخدم التبشير الاستعمار، كذلك يمهّد الاستعمار الطريق للتبشير، ويفتح له الأبواب الواسعة؛ والحروب الصليبية كانت مسلكاً عسكرياً للغرض التبشيري، فهذان العاملان يتضافران ويتناوبان كلما فشل أحدهما أو ضعف، عضده الآخر وعوضه، ولا يقتصر الأمر على هذين الغرضين فحسب، بل كل الأغراض يرتبط بعضها ببعض؛ الدينية والاقتصادية والفكرية وغيرها.

والحروب الصليبية التي تعد أهم مظهر عسكري انطلقت انطلاقاً دينية، استجابة لنداء البابا الثاني، سنة 1095 في مجمع كليرمونث، واستمرت حملاتها العشر على مدى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ومهدت بدورها لاستشراق وتبشير أكثر عمقا في الشرق وشمال إفريقيا، ثم كان التخطيط بعد فشلها لعودة أخرى³⁹،

- هذا الوصف أو الإطلاق نجده عند إدوارد سعيد مناقشته لمسألة المستشرق والدور الذي يؤديه لخدمة المصالح الاستعمارية لدولته، وسياساتها الإمبريالية باعتباره مثقف، انظر الاستشراق، ص 120. ³⁸

- ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، فصل الاستشراق السياسي،³⁹

وكل ذلك جزء ومرحلة من سياسة استعملت الاستشراق والتبشير كوسيلتين؛ وإذا كان التبشير يتوجه نحو الحياة العامة بفنائها الواسعة وطبقاتها الضعيفة، فإن الاستشراق الذي هو موضوعنا يتوجه إلى مجال المعرفة والعلم والثقافة والتأليف والبحث والتنقيب .

كان توجيه المستشرقين للقيام بأدوار أو وظائف تخدم السياسة الاستعمارية أسلوب طبع تلك المرحلة، وتم في أطر ذات أسماء علمية⁴⁰، كالأستكشاف الجغرافي، والبحث، والتنقيب؛ وهي في الحقيقة كانت غطاء لمطامح أو مطامع مادية وتوسعية في أعماق الشرق والمغرب العربي، فكانت هي الأداة الأولى التي تعطي الإدارة الاستعمارية علما وخبرة عن هذه الأمكنة البعيدة، وتقرب لها صورتها لتمكنها من التعامل معها بالشكل الصحيح _ وفق مقاييسهم _.

ومن ثم كان التعرف على بلاد المسلمين وثقافتهم ومعتقدهم وآدابهم وأساطيرهم تمهيدا للتأثير على هذه البلاد وأهلها⁴¹. أو بالأحرى كخطوة أساسية للاستحواذ عليها، وذلك بتأسيس شركات تجارية (كشركة الهند الشرقية) ، وتبدأ باستغلال خيراتها ثم استعمارها⁴²، ومن أشهر وأقوى الوسائل إرسال الرحالة، والبعثات الاستكشافية لدراسة تلك الأصقاع، وإعداد التقارير المفصلة، بعد رحلات عميقة وأبحاث أعمق في جغرافيا تلك البلدان وتضاريسها وزراعتها وتجارها وثقافتها وأسماء الأماكن وطباع السكان وكل التفاصيل التي يغفل عنها حتى أصحابه، ثم توجيه تلك التقارير إلى الجهات السياسية المستعمرة، لتتمكن من اختيار الكيفية الأحسن للتقسيم والاحتلال، ولا شك أن دراسة المنطقة تشتمل على معرفة خيراتها ومقدراتها وما فيها من نعمة، لاستغلالها.. ومنذ بداية القرن الـ18 وإلى القرن الـ19 توجه الاستشراق نحو الاستكشاف الجغرافي، وأما الجهات الراعية فهي كثيرة من مؤسسات متعددة الأغراض، تهتم بإرساليات كالإرسالية الأمريكية العربية في الجزيرة العربية، ومؤسسها هو "صموئيل زومر" عام 1889م ، ومثلها جمعية الآباء البيض، -وسموا بهذا الاسم لأنهم اختاروا لباس البرانس البيض ليسهل اختلاطهم بالمسلمين، وتسهل مهمتهم في تنصيرهم- التي قتل بعض أعضائها على يد قبائل التوارق؛ ومؤسسها المطران "لافيجري" 1869م، ومن

- والتستر وراء ما هو علمي غير صحيح، والأهداف العلمية عندهم غير مهمة، إذا ما قيس بالهدف الأهم وهو المادية، والمصلحة الذاتية؛ إذ يتقاسمان الدوافع، وما سواهما ثانوي بالنسبة للمصالح المادية بما فيه الغرض الديني إذ نجد كيف كغيره من الأغراض⁴⁰.

- علي بن إبراهيم النملة، مصادر معلومات عن الاستشراق والمستشرقين، ص 7.

- هذه كما يسميها إدوارد سعيد "المشاريع الاستشراقية" للتعرف عليها بشكل أعمق منذ بداياتها، ثم آثارها قبل حملة نابليون وبعدها انظر الاستشراق، ص 100 .⁴²

أشهر من قام برحلات الاستكشاف أو التحري التي دونت وسجل فيها وصف كل ما وطئته أقدامهم أو لحتته عيونهم؛ الأب شارل فوكو، ويستحق أمره التوقف قليلا عنده، فقد قطع 5000 كلم سيرا على قدميه، مبشرا بديانته في صحراء الجزائر، بعد أن شارك كضابط في احتلال تونس وأنهى مهمته، توجه في مهمة أخرى بالجزائر، فتوغل في صحرائها، وعاشر التوارق، وجمع بين مهمات كثيرة، وكانت المهمة السياسية التنسيقية هي الوصل بين مستعمرات فرنسا الإفريقية وبين الجزائر، وترك مؤلفا أو دليلا، يتجاوز فيه مهمة رجل الدين، فبين فيه الطرق التي سلكها، ويقدم وصفا دقيقا للمنطقة وسكانها، وحتى نباتاتها..، وقد غاص في قلب الصحراء، حتى وصل تمارست معقل التوارق وقلب الأهجار سنة 1905_ على ما كانت عليه الاتصالات والمواصلات آنذاك _، وعاش بينهم اثني عشرة سنة وعاد خلالها لفرنسا ثلاث مرات، واستمال فيها سكان المنطقة، وكان ينتقل بينهم واجتهد في تنصيرهم، ولكنه لم يفلح⁴³ . .

ومن هذه النماذج أيضا حملة نابليون التي أمر فيها من اصطحب من العلماء بتأليف كتاب "وصف مصر" ليجعله سجلا أو أرشيفا يجوي كل الموضوعات الممكنة حولها، وقد اعتمد نابليون بدوره على كتاب في مجلدين لـ"فولني" الرحالة الفرنسي الذي أنجزه بعد رحلته إلى مصر وسورية ونشره عام 1787م، وذروة الرحلة في الجزء الثاني في مسرد عن الإسلام، وكان موقف "فولني" منه عدائيا، وكان نابليون واثق منه تمام الثقة، وأشار إليه صراحة في تأملاته حول الحملة المصرية، الحملة على مصر وسورية (1798_1799)، وكان مؤمنا بصحة رأي فولني المتمثل في أنه لا بد على أية قوة فرنسية أن تحارب ثلاثة حروب؛ الأولى ضد انكلترا، والثانية ضد الباب العالي، والثالثة ضد المسلمين، وكان أسلوب نابليون الذي فهم مقالة فولني أن يبذل كل ما في وسعه من جهد لإقناع المسلمين بعبارته "إننا نحن المسلمون الحقيقيون" في إعلانه لسكان الإسكندرية، وحاول في كل مجال أن يبرهن أنه يحارب من أجل الإسلام، واستغل ظروفًا كثيرة ليشن ضد الإسلام حربا فريدة في رقتها وانتقائيتها، وحين وجد أن القوة التي يقودها لم تكن كبيرة بحيث تستطيع أن تفرض نفسها على المصريين، حاول أن يجعل الأئمة والقضاة ورجال الإفتاء والعلماء، يؤولون القرآن بما يخدم مصلحة الجيش العظيم. وتحققا لهذا الغرض، دعي أساتذة الأزهر العلماء الستون إلى مجلسه، واستقبلوا استقبالا عسكريا رسميا، ثم منحوا فرصة أن يتمتعوا بإطراء نابليون وإعجابه بالإسلام و (بمحمد)، وإيجاله

- للمزيد من تفاصيل عنه وعن الجمعيات الاستكشافية ذات العمل السياسي، راجع ساسي سالم، المرجع السابق، ص 85 وما بعدها، وما " Baudiment, "Le père de foucault" قبلها أيضا، وله فصل كامل مطول في هذا الموضوع، وهو بدوره يحيل إلى

الواضح للقرآن، الذي بدا على إلفة تامة به، وقد نجحت خطة نابليون، ورعان ما بدا سكان القاهرة وكأنهم فقدوا ربيتهم بالختلين"44

فكان التخطيط السياسي في التعامل مع المسلمين وسيلة للوصول إلى السيطرة على مصر، وتقديمها بوضوح لكل متقص، ثم تحويلها إلى دائرة للمعرفة الفرنسية، بعد إنشاء معهد مصر بفروعه وتخصصاته التاريخية الدقيقة، وكجزء من السياسة أيضا. وهذه الأمثلة جاءت للدلالة على السياسة الاستعمارية، عند نابليون كنموذج للمستعمر "الذي كان بين أدواته المستخدمة للسيطرة والانتشار معهد مصر" ووصف مصر وهما الأداتان اللتان نظر إليهما الاستشراق على أنهما جددا حيوية مصر ونضارتها، وأنها ستنتشر الحضارة بين جيرانها الشرقيين، وهذا بدوره سيحفز المستعمرين للمنافسة؛ بإيجاد مشاريع جديدة، ومبادرات جديدة للتوحيد بين أجزاء أخرى من الشرق القديم وبين الروح الأوروبية⁴⁵ . .

وهذا قطعاً ليس كل الذي ينبغي أن يقدم عن الأهداف السياسية والاستعمارية، ولكنه نموذج عنها نرى فيه أساليبها وأدواتها التي تضلل بها، وتغالط المفاهيم الأصيلة لدى المسلم والشرقي، في دينه وموقفه من الاستعمار، فتتخذ من الجزء غطاء يناسبها، ثم تدعي أنه موقف الكل، وتحدث نفسها والعالم بخطاب _ يخدم مصلحتها العسكرية _ تلفقه وتصنعه ثم تجاهر به، وتصديق ربما أنه هو الحقيقة، وتحاول أن تقنع غيرها به، بواسطة أدواتها؛ وهنا تأتي إلى دور المستشرق في هذا المجال، أو بالأحرى إلى الموظف في المؤسسة الاستعمارية، متمثلاً في كل نموذج من مئات النماذج التي تنتسب باللقب إلى قيم المعرفة والثقافة، لتواري به وظيفتها الاستخباراتية والتوجيهية ووظائفها المتعددة الأخرى، بحسب ما يطلب منها، أو تتطلبه هي من عند نفسها، لأن انتماءها وانتسابها الحقيقي إنما هو للسلطة الاستعمارية لا للمعرفة ولا للثقافة، وإيمانها إنما هو بمادية هذه السلطة وبكل سبيل يوصل إلى الأهداف المتفق عليها والمشاركة بينهم . .

ومن المهم أن نشير إلى جانب آخر من المغالطة في المفاهيم لدى "شاتوبريان" أو "لامرتين" الذي يشيد بإيمان المسلمين بالقضاء والقدر وبأنهم تعودوا على طاعة السلطان، يريد بذلك أن يتوصل إلى قبول الاستعمار

44 - "Napoléon en Egypt" إدوارد سعيد، الاستشراق، ص109، نقلاً منه عن

- المرجع نفسه، ص113. وراجع أيضاً الاستشراق رسالة الاستعمار، (محمد إبراهيم الفيومي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993)، ص121 وما بعدها في الكتاب ذاته عند حديثه عن الإرساليات والمنظمات وأثرها وكذلك من ص110 إلى ص120 عن البعثات التبشيرية وأثرها.⁴⁵

كقضاء وقدر هو الآخر، وبصرف النظر عن حكم الاحتجاج بالقضاء والقدر في تبرير الأخطاء أو الجرائم في العقيدة الإسلامية، فإن استغلال العقائد لتحقيق المآرب أمر قبيح ومعيب، وخاصة حين يصدر من مثقفين يدعون أنهم يعملون من أجل العدالة والحرية وغيرها من القيم .

ولا شك أن تفريق وحدة المسلمين جغرافيا من خلال التقسيم الاستعماري، وبالحدود التي وضعت لتكون بحق (أو بباطل) دروعا واقية وجدران تحمي الكيانات المبنية على المغتصبات، وبعد تقسيم جغرافيا الأرض إلى قطع، قسمت جغرافيا الأفكار والانتماء هي الأخرى تبعا للتي قبلها، وكذا أثرها القيمي، وقسمت تبعا لها المواقف والمرجعيات والثقافات، بتواضع قيم أخرى، وتغييب المصادر الأم والأصول الجامعة، واستحداث مرجعيات وتسميات ومبادئ لكل قطعة منها، لا تكاد تلتقي، وهذا الأسلوب القديم المستمر إلى يومنا هذا ما زال معتمدا لدى هذا الغرب، في الاستعمار وحماية المستعمرات، وفي توظيف وسائله البشرية الاستشراقية القديمة التي ما تزال هي الأخرى تحافظ على أداء أدوارها بكفاءة وفاعلية، مندججة مع ساستها _ ومقرري حتمية بسط السلطة العسكرية وامتلاك الشرق _ في كيان واحد مادي استعماري متعدد المظاهر والوجوه، وهي تتبجح بخطاب تسوق فيه قيم الديمقراطية والحرية على طريقتها، وما احتلال فلسطين⁴⁶ والعراق ومناطق واسعة من الشرق⁴⁷ كله، إلا صورة معاصرة ومشهودة لهذه الأغراض الاستعمارية .

الهدف الاقتصادي⁴⁸:

يعد الهدف الاقتصادي بما فيه التجاري عاملا مهما، وهو أحد عناصر العمل السياسي الاستعماري⁴⁹، والتخطيط للاستحواذ على ثروات الشرق، جزء من احتلال الأرض واستعباد الإنسان الشرقي، والشرق كما هو معلوم أغنى من الغرب، بل إن ثراء الشرق _ وما فيه من نعم الله السابغة، وهي في كل شيء، من الثراء

- خصص عبد القاهر العاني فصلا مهما في كتابه الاستشراق والدراسات الإسلامية للاستشراق وقضية فلسطين ، وواقعا هي أهم قضية في هذا الباب، وتناول في الفصل بواعث قيام الدولة اليهودية على أرض فلسطين، والدوافع الاستعمارية العالمية لذلك، ودور ودوافع كل من فرنسا وانكلترا وأمريكا وإيطاليا .⁴⁶

- للتوسع في هذا الغرض الاستعماري وما يتعلق به من دوافع الصراع وأساليبه، راجع : الاستشراق رسالة الاستعمار ، في بعض فصوله، وهو يتناول أغلب مباحث هذا المقياس، وهو متوفر إلى جانب بقية المراجع في مكتبة الجامعة .⁴⁷

-تجدون في مؤلف ساسي سالم الحاج ، نقد الخطاب الاستشراقي، فصلا مهما عن الأهداف الاقتصادية، وفيه توسع مفيد. وكذلك في كتاب الموجز في الاستشراق لسعدون الساموك عند تناوله للمدارس الاستشراقية فصل الأهداف جميعا بكل أنواعا عند دراسته لكل مدرسة بشكل واضح وجامع .⁴⁸

- للاطلاع على الهدف الاقتصادي ، انظر سعدون الساموك، المرجع نفسه، ص35.⁴⁹

المادي وكنوز الأرض كالنفط والمعادن، إلى ثراء الإنسان في قيمه وحضارته وتراثه وآثاره حيا وميتا- كان يشكل مطمعا للغرب، في كافة المراحل التاريخية .

والتطور السياسي والعسكري وحتى الاقتصادي للغرب، ونهضته التي يؤسسها تحتاج إلى دعائم تقيمها، وهي_ بما فيها المشاريع الاستعمارية_ بدورها مصدر من مصادر الثروة في الغرب والتي تمثل عصب الاقتصاد الغربي، وهو ما سوغ لها الانقراض على هذا الشرق الذي يشتمل على ثروة متعددة ومتنوعة بدءا من مصادر الطاقة وانتهاء بالتربة والمناخ، بل كل ما فيه يعد ثروة، ومن سبل استغلالها إحياء الطرق التجارية منذ القديم (ق13)، والشرق طريق تجاري مهم جدا، وفي العصر الحديث تعمل على الاستيلاء على المسالك، وطورت أساليب سيطرتها عليها ، لأن ذلك يحقق لها السرعة ويخفض النفقات، بل إن مراكز الاحتلال الغربي صارت تتنافس فيما بينها على امتلاك ثروات الشرق، وما الحروب العالمية، وتقسيم الشرق إلى مناطق احتلال ووصاية، إلا بعضا من أساليبه لبلوغ مطامحه المادية في امتلاك مقدرات الشرق، وإن لم يمتلكها باحتلال فلا أقل من مشاركة أصحابها فيها كما هو حاصل . .

أما عن تحديد دور المستشرق وعلاقته بهذا المجال، فنجد ماثلا في عمله وفق سلطة دولته، واستجابته لمطامعها الاستعمارية المادية، وتنسيقه مع سياستها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه يعد مُقَرِّرا للمشاريع الاقتصادية ومحدد بنيتها الأولى، ومؤسسا لأرضيتها، فهو مكتشفها أو مستكشفها، من خلال إعداده تقارير الخبرة الوافية عن الثروات ومجالات الاستثمار (أو الاستحواذ) في البلد المزمع احتلاله، وكما سبقت الإشارة فإن تلك التقارير كانت تعد من قبل الرحالة والبعثات الاستكشافية لتكون ممهدة للاحتلال، وهو دور المستشرق الذي يغوص في عمق البنى المختلفة للمنطقة، ويقوم بالكشف عن كافة تفاصيلها، بما فيها مواطن الثروة، ليوجه الجهة المسؤولة إليها وإلى كل ما يشكل مطمعا أو مصلحة استعمارية، وإن كان ذلك يتنافى مع المبادئ الإنسانية والأخلاقية التي يفترض أن يؤمن بها كل مثقف . .

الهدف العلمي:

سبقت الإشارة إلى طبيعة الأهداف الاستشراقية وارتباط بعضها ببعض، وخدمة بعضها لبعض، والهدف العلمي الذي كان موجودا في كل المراحل التاريخية للاستشراق، تنطبق عليه هذه الخاصية، ويكتسب أهمية كبرى، فلطالما كان ذريعة وحجة وارى بها المستشرقون أهدافهم الحقيقية والأكثر أهمية؛ المادية والدينية، بل واتخذوه سببا للتنفيس عن غيظهم بالنيل من الإسلام، وكثيرا ما خدم المستشرقون سياساتهم الدينية والاستعمارية باستعمال الغطاء العلمي، فاستعمل العلم بكل فروعه _ وبحسب ما تتطلبه الحاجة من التخصصات _ في خدمة الأغراض المادية والدينية والعرقية .

غير أن النشاط العلمي _ وهو ذو وجوه كثيرة _ كان منها ما عد إيجابيا، لنفع عاد به على الشرق، إلى جانب ما كان سلبييا تماما، وأفضل أن أترك للطالب بعد استعراض الأهداف العلمية العامة والتفصيلية، التساؤل أو الموازنة والترجيح فيما يخص الخدمات العلمية الاستشراقية بكل ما لها وما عليها، وأتمنى أن يقوم أو يحاول أن يجيب عن تساؤلات، هل كان الشرق بحاجة لهذه الخدمات _ مع استحضار كل المنهجية والمخططات الاستشراقية وخلفيتها السياسية والاستعمارية أو حتى النفعية المادية الموجهة؟ ومن كان المستفيد على الحقيقة _ أو على الأقل بدرجات أولى _ هل كان هو الشرق؟ وهل فصل المستشرقون بين ما هو علمي وما هو سياسي؟ وكيف يمكن للسياسة أن تستخدم العلم وتوجهه ومجاله وتستفيد منه؟ إن الهدف العلمي تمت دراسته من أكثر من جانب، بحسب الأهداف التي خدم والتي أعطته صبغته، ونجد المستشرقين قد تمسكوا بها في كل مراحلهم، وكانت مصاحبة لكل نشاطاتهم، ومنها:

* / التعرف على بلاد المسلمين وثقافتهم ومعتقدهم وآدابهم وأساطيرهم تمهيدا للتأثير على هذه البلاد وأهلها⁵⁰.

* / الترجمة في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية من بغداد إلى بلدانهم

* / تصدير تراث المسلمين من كتب ومخطوطات حتى شغلت حيزا كبيرا في المكتبات الغربية والمتاحف.

* / الحاجة الملحة إلى إعادة النظر في شرح كتبهم الدينية وتطوير علومهم على أساس التطور الذي حصل في كل مرحلة تاريخية⁵¹.

* / تدوين التاريخ الجاهلي، وبيان مصادره وجذوره بأعلى المقاييس العلمية، واستعمال المقابلات و المطابقات، الكشف عن الآثار والنقوش في الحضارات العربية الغابرة ما قبل الإسلام، والعناية باللغات والعلوم الشرقية.

* / الرحلات المدونة والتي تم من خلالها اختراق المجتمعات العربية، ونسخ وتصوير كل ما يخدم المصلحة الاستعمارية في المناطق المعدة للاحتلال في الشام وشبه الجزيرة واليمن وشمال إفريقيا وغيرها من المناطق⁵².
* / إعداد الموسوعات وفق منهجية البحث والتوثيق.

* / فهرسة النصوص في مختلف تخصصات المعرفة الإسلامية.

* / التنقيب عن الآثار (الآشورية، والبابلية، والمصرية، وبلاد الرافدين، والمغرب العربي..).

* / دراسة الآداب القديمة والفنون القديمة، وإخراج كنوز الدفينة من باطن الأرض، وكان لكل بلاد الشرق نصيب من تلك العناية بالآثار.

* / المخطوطات (إخراج وجمع وحفظ وتبويب وفهرسة..)، ومن المهم جدا الإشارة إلى أنهم أفادوا فكريا وعلميا وعلى كل صعيد، من حصولهم على هذه المخطوطات وأنشأوا المكتبات الكبرى⁵³ لحفظ هذا التراث العظيم، وصاروا ملاك القانوين الذين يستأذنون في الاطلاع عليه..

* / محاولة السيطرة على العقل الإسلامي باختراقه والنفاد إليه وتبديل مناهجه بمناهج التفكير الغربية لدى كل الفئات، وفي مراحل التكوين والدراسة المختلفة، وبالتأثير على الأكاديميين العرب والمسلمين ومفكرهم وأدبائهم باعتبارهم قنوات أساسية تستقي منها الشعوب ثقافتها، ومن حقول عملهم في التأليف أو التعليم أو الإعلام أو غيرهما من مجالات الإبداع..

* / إلقاء الضوء على الخلافات المذهبية والعرقية وإبراز جوانب الخلاف والفرقة والتمايز بين مكونات شعوب الإسلامي، وفي سياق قريب منه، إحياء نغرات الشقاق الفكري بطرح قضايا تشغل المفكرين، ولا

- صابر طعيمة، أخطار الغزو الفكري، 106. 51

- ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، ص 101 وما بعدها. 52

- فتحة البراوي، الاستشراق، ص 176⁵³

يمكن الجمع أو التأليف بينها، لتكوين جو مشحون بالصراع والتناحر بين الجماعات الفكرية، كما كان الحال في القرن الماضي بين الشيوعيين والرأسماليين، وأثر ذلك بتخلف المسلمين . .

*/ إثارة كل ما يلهي ويشغل بشكل عام عن القضايا الأساسية .

*/ ورغم اعترافهم بفضل الحضارة الإسلامية على العالم الغربي بعلومها وفنونها، إلا أنهم يظلون يشككون في أصولها، وفي أصول علومها (كالنحو والفقه والقانون والتصوف ..)، ويرجعونها جميعا إلى اليونان أو الإغريق أو الهند أو إلى المسيحية أو اليهودية أو البوذية أو إلى أي دين أو حضارة غير العربية والإسلامية . وستتعرف على منهجهم في ذلك عنصر لاحق ..

و بعد الحرب العالمية الثانية، ظهرت أفكار تنادي بمساواة الدول والشعوب⁵⁴، وإلغاء الهيمنة والاستعمار .. وحفظ الأمن والسلام (رغم أنهم إلى اليوم يحتلون فلسطين والعراق ومناطق واسعة من الشرق المسلم وغير المسلم)، وصاروا يعتمدون المناهج العلمية بشكل أفضل، حتى أن بعضهم ردوا على أساتذتهم من المستشرقين، فسارت مناهجهم شيئا ما (في بعض الحالات النادرة) في اتجاه الموضوعية والعلمية المحايدة. ووفق الأهداف العلمية ظاهرا، والمتعددة في ماديتها باطنا، صيغت المناهج العلمية الاستشراقية_التي أشربت إيديولوجيات وفلسفات لدول تنتهج سياسات الاستعمار والمصلحة المادية_ لتعبر عن طموحات دولها ببناء فكري يخدمها وتستفيد منه على كل صعيد . .

وقد تميز أغلب المتقدمين من المستشرقين بامتلاك وسائل منهجية تساعد على البحث ومنها اللغة العربية، وحتى حاليا منهم المتخصصون الجادون، ولكن لا يخلو الأمر من الحالات التي لا يمكن أن تُتصور عن دارسين متخصصين في الشرق، لا يعرفون كلمةً باللغة العربية، وهم مع ذلك يتكلمون باسم الشرق وعنه، كما هو حاصل مع مستشرقين "غلنر" و "جوديث ميللر" وقد أوردتهما كمثال عن هذه الظاهرة الجديدة إدوارد سعيد في كتابه "تعقيبات على الاستشراق".

الهدف الفكري والثقافي:

- يمكنك الرجوع إلى بيان وتفصيل هذه الفكرة في المرجع نفسه ص 174_179 . وراجع أيضا الساموك، المرجع السابق، ص 34، وص 35. ⁵⁴

الهدف الفكري لا ينفصل عن الهدف العلمين، والعلاقة بينهما كعلاقة الفكر والثقافة بالعلم، وقد جاء تقديمه في عنصر منفصل عن سابقه لزيادة التوضيح. .، أما من حيث أهمية وخطورة هذا الهدف، فرمما أمكننا القول إنه لا يقل خطره عن خطر الاستعمار_ إن لم يكن أكبر_، ولذا نجد هذا الهدف حاضرا في حال الحرب كما في حال السلم، ويتم استحضاره والعمل من أجله بالموازاة مع كل هدف آخر، فهو يمهّد للاستعمار وللتبشير ويصاحبهما في حال الاحتلال، ويكون بديلا عنهما في حال غيابهما..

وممكن الخطورة فيه يتمثل في كونه يتوجه الفرد الشرقي وشخصيته، فتوابت الشرقي من معتقد ودين وقيم وأخلاق وأعراف وطبيعة وسمت، هي ما يميز شخصيته التي قاومت الاحتلال والمسح والدوبان و مظاهر الطغيان الغربي وأساليبه، وقد رأينا زمن عقود الاحتلال كيف حافظ هذا المسلم العربي على شخصيته _بشكل خاص وواع_، وأقرب نموذج لنا من الشرق، من شمال إفريقيا، هو الشعب الجزائري، الذي حافظ على مقوماته الحقيقية، وشخصيته الوطنية، رغم ما فرضته سلطة الاحتلال _التي دامت قرنا وثلث القرن_ من تجهيل وطمس قهري لكل مقومات الشعب، وما زال استمرار هذا الهدف يشكل تحديا كبيرا للشرق وشخصيته .

أما الأساليب التي اعتمدت لتحقيق هذا الهدف فمنها :

* / نشر الثقافة التي تعبر عن وجهتها الفكرية بكل الوسائل : صحف ومجلات وأفلام وكتب وروايات ..

* / التوجه إلى الشخصية العربية المسلمة ومحاولة هزها أو إخضاعها لثقافة الغرب، وزعزعة ثقافتها بنفسها.

* / تحويل نظرة الشرقي إلى نفسه إلى نظرة دونية، وتكوين الشعور بالنقص لديه وممارسة ما سمي

بالاستعلاء الثقافي⁵⁵، واستعمال المراوغة والاحتتيال والإيهام على شخصيته.

* / إرساء منهجية عقلية وفكرية لإعادة الصياغة للعقل العربي وللشخصية العربية جميعا وفق ما يلائم

معطيائهم الفكرية والثقافية، وبعيدا عن معتقداته وثقافته وأصوله ..

- تجدون هذه الفكرة بإسهاب، وتناول للأهداف الفكرية و الثقافية عند إدوارد سعيد، الاستشراق، ص 149_160. 55

*/ إيجاد التخاذل الروحي في نفس المسلمين⁵⁶، وحملهم على اتباع نهجهم وتوجيهاتهم، وتكوين أجيال تفضل مناهج الغرب وأدبه على أدب العرب والمسلمين ومناهجهم، وتعمل على تحقيرها لديهم وتنفيرهم منها بكل طريقة .

*/ عزل أمة الإسلام عن مصادرها المتمثلة في القرآن والسنة، وعن قيمه ومبادئه، بعد فشلهم في جعلهم يرتدون عن دينهم بطرق التبشير، وذلك بنقل ثقافة مضادة لثقافتهم وأخلاقهم، ومغالطات في مفهوم الحرية والنقد الذي لا ضابط له ولا معيار، بدعوى البحث والعلمية .

*/ محاولة تحرير العقل والفكر الإنساني من الأطر الدينية والأخلاقية والعرفية، ورد الإنسان إلى ذاته باعتبارها مرجعيته التي ينبغي أن يتبع، وفصله عن مصادره الدينية بدعوى الحرية والعقلانية، ولا شك أن المسلم و العربي هو موضوع لكل تلك التحولات الجذرية .

*/ إزالة ومحو وتغييب كل الضوابط والمعايير الدينية والأخلاقية، بوصفها تخلف ورجعية.

*/ تصوير الشرق على أنه معجب ومنبهر بالغرب حتى لو لم يكن كذلك، ويسلط عليه من الأساليب والسياسات ما يُساق به قسرا إلى مجالاتهم ثم يقولون إنه لم يصمد أمام ذوق الغرب وذكائه، بل أشد من ذلك مقولاتهم التي تعبر عنها عبارة للمستشرق "ساسى" مفادها أنه على الشعر العربي أن يحول تحويلا ملائما على يد المستشرق قبل أن يتاح له أن يُتَدَوَّقَ ويُقَدَّرَ⁵⁷ . .

مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية :

ونحاول في هذا العنصر أن نتعرف على أساليب العمل البحثي لدى المستشرقين، وكيف تعاملوا مع علوم الشرق، وخاصة الإسلامية منها والتي عكفوا على دراستها وخصوها بعناية شديدة؟ وما هي مناهجهم فيها؟ وهل لكل فرع من علومها منهجا يلائمه، أم تعاملوا معها بأساليب متشابهة؟ وهذا الأمر يتضح بإذن الله من خلال نشاط المستشرقين العلمي، وميادين البحث وتخصصاته التي اختاروها والتعرف على هذه

- هذه الإشارات بتصرف، وأهداف أخرى عند صابر طعيمة، أخطار الغزو الفكري، ص 101، 102. ⁵⁶

- يناقش هذه الفكرة بتوسع إدوارد سعيد، المرجع السابق، ص 149 وما قبلها وما بعدها. ⁵⁷

المناهج بالتفصيل يتطلب منا الرجوع إلى كل موضوع من موضوعاتهم، أو على الأقل إلى كل تخصص بحثي من العلوم الإنسانية والإسلامية خاصة التي لزموا فيها مناهج وأساليب بحث تكرر وأجمع كل من تتبعها على أنها كانت لصيقة بهم وصارت خاصة طبعت جل أعمالهم بشهادة باحثين من أهلهم ومن العرب؛ وقبل الدخول في كيفية مقاربتهم للعلوم الإسلامية وتخصصاتها الفرعية، نحاول استعراض الملامح العامة التي اتسمت بها مناهجهم، ثم نأتي إلى كيفية تعاملهم مع القرآن الكريم، ثم السنة الشريفة، والسيرة النبوية المطهرة، والفقه والتشريع والنظم، والتاريخ الإسلامي، مع محاولة الإشارة إلى علم الكلام، والتصوف، ولا بد من التأكيد على أن هذه المناهج كانت لدى أغلب المستشرقين، فليس المقصود هو الإطلاق ولا التعميم، فلكل قاعدة استثناء، ولا بد من التفريق بين الاستشراق كمؤسسة مؤطرة، ذات أهداف مسطرة بدقة، تستعمل حشودا من الباحثين لبلوغها، وبين المستشرقين كأفراد فيهم فئة تتسم بالموضوعية والنزاهة، وهذا غالبا لا يخلو منه أي مجال، _ وكما يقال "كل التعميمات خاطئة حتى هذا القول" _.

السمات العامة للمنهج:

أما السمات العامة لدى أغلب الباحثين الغربيين فهي كما يأتي؛

* /الشرق والإسلام كما يراه هو، _ أو بالأحرى_ كما يريد أن يراه، ومعيار الحكم عليه هو مرجعيته الخاصة به الأوروبية، وأهواؤه الشخصية وميوله الفردي في التحليل وفيما هو ثقافي، فليس المعيار هو العدل والموضوعية العلمية، ولا شك أن هذه الطريقة تنتج تشويها لصورة الإسلام وعلومه لم يقبلها حتى الموضوعيون منهم. . * /تعمد عدم أخذ الإسلام من مصادره وأصوله من الوحي (القرآن والسنة)، ولا من العلوم التي تأسست عليهما، وهي بمتناولهم وتحت أيديهم وأبصارهم، ولكن منهجيتهم تقتضي اعتماد سابقهم وأسلافهم من المستشرقين، وهذا يعطي صورة ناقصة بل ممسوخة عن الإسلام ونبيه _ عليه الصلاة والسلام _ وعن العلوم، كما نجده عند "شاخ" و"تزيهر" .

* /التوجه إلى ما يروونه نقاط ضعف من وجهة نظرهم، أو من وجهة نظر عامة، والتركيز عليه يجعله محورا، أو تقديمه على أنه موضوعا مركزيا حتى لو كان ثانويا جدا أولا علاقة له بجوهر الموضوعات المتناولة.

*/المستشرق (الغربي) لا يفهم أمة العرب وأمة الإسلام، ولا يدرك خصائص شخصيتها ولا قيمها أو ما بيعتها ويجركها، بل لا يدري عن علومها ولا عن مداركها أو مواهبها؛ فهو يتعامل معها بموازينه المادية، فكأنه يستعمل ميزانا واحدا حيث الأصناف مختلفة، وميزانين للصنف الواحد . . ، بحسب ما يتطلب الحال

..

*/ادعاء العلمية ومجافاتها في الواقع، وإخضاع علوم الشرق لموازين مكيافيلية تخدم مصلحة الغرب، وتقبل ما يوافقها وترفض ما لا يفيق معها..

*/ محاولة نفي كل سمة تدل على أن الإسلام دين سماوي، أو أن العلوم الإسلامية تتسم بالأصالة_كما سيأتي، بحيث يصبح النفي عندهم هو الأصل لا الإثبات، أو بالأحرى نسبة ما هو إسلامي إلى الوضع والاختلاق أو إلى التلفيق ..

*/ ومن ثم فهم لا يعترفون إلا باليهودية والنصرانية دينين سماويين، ولذا صوروا النبي _عليه الصلاة والسلام_ قسا نصرانيا متمردا . . ، ونفوا أن يكون قد أوحى إليه، بل لم يتعاملوا مع الأمر ولو على أنه فرضية تستحق المناقشة، باعتباره يدخل تحت الإمكان، ونسبوا من ثم ظاهرة الوحي إلى مرض عقلي، وصرع وحمى . . . */ اعتماد المغالطة في تقديم الإسلام وعلومه لا الحقيقة التاريخية، فالمركزي وما هو أصل، يُهمل أو يقدم على أنه ثانوي أو هامشي _في أحسن الأحوال_، وتقديم الإسلام من خلال الاعتزال والباطنية والخلافات والفتن . . ، أما مصادرهم المعتمدة في ذلك فليست القرآن وتفسيره، أو كتب السنن، أو ما أُلّف من التراث الضخم في مختلف علوم اللغة وعلوم الإسلام المبتكرة في مختلف التخصصات، وإنما هي كتاب "الأغاني" لـ"أبي الفرج الأصفهاني"، وأشعار "أبي نواس" و"بشار بن برد" و"ألف ليلة وليلة"، وكتب "ابن الراوندي"، لإعطاء صورة مزيفة، وكذا الاهتمام بشخصيات يشبهونها بشخصيات مسيحية كشخصية "الحلاج"، لبيّنوا من خلاله تأثير المسلمين بهم في كل مجال تميزوا به . ومن استعراض نماذج كثيرة يتبين الخلل في الموازين التي يتعرفون بها على أهمية الموضوعات ومركزيتها .

*/ يضع أحدهم الهدف أولا ثم يقيم له دراسة يلتمس فيها الأدلة ليثبت بها مصادره السابقة، وأحكامه البقينية عنده والمقررة سلفا .

* / محاولة الحط من مفهوم الإسلام، ونسبته إلى التلفيق من الديانات السماوية، ونفي الأصالة عنه في كل شيء، لأنهم في الواقع لا يريدون الاعتراف إلا باليهودية والنصرانية، ولهذا صوروا النبي عليه الصلاة والسلام قسا نصرانيا متمردا، والإسلام عندهم دين صنعه محمد، ولهذا يسميه كثير منهم المحمدية .

* / البعد عن دراسة مصادر الدين الإسلامي وخاصة القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من نظم، رغم أن ذلك من أساسيات البحث العلمي الموضوعي، التي تتطلب الإحاطة الكاملة بالموضوع، فهم في دراسة الإسلام وعلومه بعيدون عن أساسيات المنطق السليم، وعن العلمية، ويقررون سلفا مقدمات خاطئة ينطلقون منها، وصفون أنفسهم بالعلمية وغيرهم باللاعلمية .

* / اعتماد المنطق المادي في تفسير الظواهر، والأساليب التبشيرية في الدراسات الاستشراقية.

* / استعمال الحيل، وإتقان ما يسمى بعملية التسلسل الفكري، كالثناء على جانب من الإسلام، أو الإطراء على شخص النبي _ عليه الصلاة والسلام _ ووصفة بالذكاء الخارق والعبقرية لنزع سمة النبوة عنه.

وهذه الملامح من مناهج المستشرقين⁵⁸ ستبين _ بإذن الله _ عند بحث كيفية تناول المستشرقين للمجالات العلمية من الإسلام .

* / سوء الظن بالإسلام وبرجال المسلمين وبعلمائهم وبعظمائهم، وتصوير المجتمع الإسلامي في مختلف العصور، بمجتمع متفكك تقتل الأنانية عظماءه، وتصوير الحضارة الإسلامية بالمنظار ذاته تصويرا دونيا⁵⁹.

منهجية المستشرقين في دراسة القرآن الكريم:

قبل البدء بعرض منهجية المستشرقين في التعامل مع القرآن الكريم، لا بد من الإشارة إلى أسباب توجه المستشرقين إلى دراسة القرآن الكريم، وأهميته وموقعه من الإسلام، فالقرآن الكريم هو كلام الله الذي أنزله على النبي _ عليه الصلاة والسلام _ ، وهو المصدر الأول من الوحي إلى جانب السنة الشريفة، وهو أساس الدين وعليه قام، وهو أساس الحضارة أيضا، وهو أساس الفرد المسلم وهو أول مقوماته... وقد مر بنا في موضع سابق كيف توجه أوائل المستشرقين للقرآن الكريم ومنهم "بطرس الميجل" صاحب مشروع فهم

- سعدون الساموك، الوجيز في الاستشراق، ص69 وما بعدها، وعبد القاهر العاني، الاستشراق والدراسات الإسلامية، في مواضع مختلفة. ⁵⁸

- محب الدين الخطيب، سليمان الندوي، مصطفى السباعي، دفاع عن الحديث النبوي وتفنيدهم شبهات الخصوم، ص108، 109، 110. ⁵⁹

القرآن والرد عليه، لأنه يريد هدم الأساس، وإلى مثل ذلك يذهب المبشر "جون تاكلي" الذي يقول عن المسلمين "يجب أن نستخدم كتابهم (أي القرآن الكريم)، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه لنقضي عليه تماما، يجب أن نري هؤلاء الناس أن الصحيح في الإسلام ليس جديدا، وأن الجديد فيه ليس صحيحا"⁶⁰، ولأن المستشرقين أدركوا أهميته العظمى، وموقعه من الدين الإسلامي ومن المسلم، توجهوا إليه بشكل جاد ومكثف غير أن تلك الجدية لم تكن في علميتها، وإنما في عداها الموجه والشديد، فلم تكن مبررة بشكل علمي، بل كانت عبارة عن توجيه اتهامات لم ترفق بأي دليل، مما يجعل المطلع عليها يتأكد أن وراء رفضهم للوحي الإلهي دوافع وخلفيات كثيرة _ غير العلمية _، وهي متنوعة بين تفكيرهم المادي والمتجذر فيهم وفي عقيدتهم الوثنية الأولى _ في دياناتهم اليونانية وتماميلهم _ ثم انتقالها إلى ديانتهم التي كانت في الأصل سماوية موحدة ثم قالوا كما جاء في القرآن (ولد الله وإنهم لكاذبون)، وهي تشبه المادية في الديانة اليهودية، فلا غرابة فيمن تشبع بهذه العقائد أن يرفض سماوية الوحي وسموه، كذلك التباين الشديد بين الشخصية الغربية والشخصية العربية الإسلامية، مما يزيد الاستنكار وعدم الفهم، ولا بد من التأكيد على الأسباب النفسية وهي الأقدم والمتمثلة في الحسد _ الذي كان في أسلافهم منذ زمن البعثة وسيكون حتما إلى ما شاء الله _، فلا يبعد أن يرفضوا قبول هذا الوحي ويتبعوه بعد أن كانوا متبوعين .

ومن بين شبهاتهم حول القرآن _ وهي أكثر عددا من أن توردهنا _:

* أول قاعدة ينطلقون منها، وهي الشبهة التي اشترك في قولها كل من تناول القرآن الكريم والنبي _ عليه الصلاة والسلام _ وهي أن القرآن من وضعه وتأليفه، ومن ثم يلحقون بها ما يتعلق بها من الشبه، وهي أنه لم ينزل عليه بطريق الوحي، وهو ليس كلام الله، وأنه تعلمه، ليبرروا ما قالوا، واضطربوا في وضع فرضيات لذلك التعلم وعدوها يقينيات، فأعطى كل منهم وجهة نظره في مصدر القرآن الذي قرر سلفا أنه مؤلف بشري .

- صابر طعيمة، أخطار الغزو الفكري، ص 107.60

يعيد بعضهم القرآن إلى الكتب السماوية السابقة، ويرى أنه مؤلف منها، ومنهم "فنسك" الذي يقول⁶¹: "ألف محمد القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته"، ويمكن أن يرد على هذا الزعم بأن وجود تشابه بين بعض ما حواه القرآن الكريم مما يتعلق بالألوهية أو بالأنبياء في أسمائهم ودعواتهم المتشابهة، وفي كل ما يتعلق بالخلق وما سواه، ليس حجة لهم على القرآن، وإنما هي حجة للقرآن عليهم، إذ يدل ذلك على وحدة المصدر، وعلى وحدة الرسالة، التي أكد عليها القرآن وعلى إقراره بأصل كتبهم السماوية التي جعل الإيمان بها أحد أركان الإيمان التي لا يكون إلا بها، كما أن ذلك التشابه يبين أيضا ما امتدت إليه أيديهم وألسنتهم من تحريف الكتاب وإخفائه ولّيته، ولا شك أن ما بين الله فيه من كشف لهذه الحقائق عنهم، وعن حقيقتهم، وبهتائهم، وعن كتبهم وعن كل حق لله في هذه الأرض هو ما زاد من غيظهم وحقنهم عليه، فورث سابقهم عداوة القرآن للاحقهم منذ نزول الوحي وإلى أمد لا يعلمه إلا الله، ونحن نشهد بعض مراحلها ..

وبعضهم الآخر يرى أن القرآن أخذ أصول الإسلام من اليهودية والنصرانية، وقد قال به "جولد تسيهر"، ويريد أن يثبت زعمه بأن النبي _عليه الصلاة والسلام_ اتصل بعناصر يهودية ونصرانية، وتأثر بها تأثرا عميقا، حتى صار يعدها من تعاليم وحي إلهي، وقد ذهب إلى القول ذاته "درمنغام" و"رينيه" وغيرهما، فجعلوا التعلم مصدر الوحي الإلهي، ولا بد هنا من التوقف عند هذه الشبهة، ليس لأهميتها وإنما لترددتها على لسان كل مكذب بالوحي، ولبيان إعجاز القرآن وما أودع الله فيه من العلم والحكمة، والذي ينبغي التنبيه إليه هو أن شبهات المستشرقين لا تختلف في شيء عن شبهات المشركين المعاصرين للوحي والمناوئين للنبي _عليه الصلاة والسلام_ فهم يرددون الشبه ذاتها دون إضافة في جوهرها والذي يتغير في بعض الأحيان القليلة هو صياغة الشبهة بمصطلحات العصر الذي يعيشون فيه وعلومه، وهم في هذا الشأن القليل ناقلون ومقلدون ولم أتوا فيه بأي جديد؛ فحين قال كفار قريش تعلمه، وهي أساطير الأولين اكتسبها، وقالوا شاعر ومجنون وساحر ..، قال هؤلاء إنه التقى بفلان واضطربوا فيه، وكل يقذف مالا يرى ولا يصيب، وقالوا كسابقيهم أنه كان يعتريه ما سموه ب(حالات عصبية عنيفة. .) و أنه كان يجيد الحيل وخدع السحر وغيرها وسيأتي بيانها في موضعها ..، إذ أن هذه الشبهة شبهة أساسية عندهم، وأوردها الله تعالى في قوله: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) [النحل: 103]

– عبد القاهر العاني، المرجع السابق، ص 57 وما بعدها.⁶¹

أما مصدر التعليم فقد ترددوا فيه بين شخصيات كثيرة منها:

* "بحيرى" الراهب الذي زعموا أنه علم النبي _ عليه الصلاة والسلام _ حين التقى به أثناء رحلاته إلى الشام، والرد الأول عليها؛ يتمثل في كون النبي _ عليه الصلاة والسلام كانت له رحلة واحدة فقط حين كان صغيراً، وكان مع عمه، وكان صغيراً جداً لا يمكنه التعلم، فكيف بتعلم القرآن الكريم كله. .، والرد الثاني على شبهة تعلم النبي _ عليه الصلاة والسلام _ حين سافر للشام للتجارة . والرد يتمثل في كون رحلتنا النبي _ عليه الصلاة والسلام _ إلى الشام يسيرتين وتجاريتين، وزعموا أنه مر مع القافلة بمدين، والواقع أنها لا تمر بمدين في سيناء ، ولم تتجاوز "بصرى" .. ولو تعلم شيئاً لظهر في كلامه آناً أي في الخامسة والعشرين لا في الأربعين. .

* مخالطة النصارى في شبه الجزيرة العربية حيث انتشرت النصرانية، ك"قس بن ساعدة الإيادي" و"أمية بن أبي الصلت"، ويُرد بأنه لم يكن في شبه الجزيرة العربية نصارى إلا نادراً، ولم يلتق النبي _ عليه الصلاة والسلام _ بقس بن ساعدة الذي مات قبل البعثة، ولا بأمية بن أبي الصلت لا قبل البعثة ولا بعدها.

* زعم "إميل درمنغام" وبعض زملائه أن النبي _ عليه الصلاة والسلام _ تلقى القرآن من "ورقة بن نوفل" لأنه كان يقرأ الكتب السابقة وله علم بها ويكتب بالعبرانية كما جاء في كتب السير، والرد؛

- في كل ما جمع المؤرخون والمحدثون صحيحه وضعيفه لم يجدوا فيها أن ورقة كان داعية إلى النصرانية..

- ورقة كان مستطلعاً ثم مثبتاً أن هذه الصفات هي صفات الوحي في كل دين سماوي.

- أعلن ورقة أنه لو كان شاباً لناصر النبي _ عليه الصلاة والسلام _ ودافع عنه ومعه فهو تابع لا

متبوع..

- بعد موت ورقة من علم النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من عشرين سنة⁶².

- محمد ضياء الدين عتر، نبوة محمد في القرآن، ص316،315 ، بتصرف . وفي الكتاب تجدون مختلف الأدلة في الرد على شبهات

المشككين. 62

* وأرجعوا نسبة الوحي إلى الجارية "بركة"، فيذهب "بودلي" إلى أنها كانت مسيحية ولقنته، وظل في عقله الواعي يختزن كلام "بحيري" ثم أضاف له كلام "بركة" وأضاف عاملا آخر هو التقاء اليهود والنصارى_ كما سيأتي_ ومختلف الأديان ويتلاقون كما هو الحال في الألعاب الأولمبية..⁶³

* زعموا أن الرومي الرقيق الجاهل وهو أعجمي وسمه مختلف فيه، وكان يعمل حدادا يصنع السيوف، وكان بائعا عند الصفا، وكان يعرف شيئا من التوراة، وأقوى الردود على هذه الشبهة جاء في القرآن الكريم حين أبطل هذه الشبهة التي نقلوها عن أسلافهم، قال الله تعالى (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) [النحل: 103]. وقد أبطلت أيضا بأدلة أخرى؛ منها: أن العلم كان حكرا على طبقة خاصة من الناس، فكيف لطريد شريد أن يناله. . . ، ثم لماذا لم يأخذوا عنه هم هذا الكلام ويعارضوا به القرآن، ولماذا لم يتول هو (أي الرومي) زمام القيادة بنفسه ويكون هو الداعي والرسول وينال هو هذا الشرف العظيم ولا يتنازل عنه لغيره. . . ، كما أن التاريخ لم يرو لنا هذه الصلة الوثيقة بين الرومي (وهو المعلم) وبين النبي عليه الصلاة والسلام، ولا بينه وبين الصحابة كما روى لنا عن صحبة الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام.

حاول كثيرون منهم ومنهم "جولد تسيهر" المجري الجنسية اليهودي الديانة أن يثبت أن القرآن مستمد ومؤلف من الكتب اليهودية والنصرانية، وأن الإسلام صورة مبسطة عنهما، والقرآن برأيه إنتاج ذاتي من (محمد) أي النبي عليه الصلاة والسلام، ويفسر ذلك بأن شعوره أنه نبي يتم رسائل التوراة، وحميته الملتهبة في شكل وهمي خيالي حاد وتلقائي ذاتي جعلته يتصور ذلك ثم يعمم الأمر على كل الرسل، فيقول إنها بدافع إدراكهم المباشر. ويذهب "درمنغام" إلى القول ذاته فيقول: "كان مستاء من أوضاع قومه... وروحه تزداد بالصوم والسهر والإدمان على تقلب فكرته صقلا وحدة، ونسي الليل والنهار والحلم واليقظة.. جاثيا في الغار أو مستلقيا في الشمس أو سائرا بخطوات واسعة في طرق الصحراء الحجرية، وكأنه يسمع الأصوات تخرج من أحجارها.."، هكذا يُصوّر الوحي، وكأنه يشير إلى نوع من المستيريا، كما سيتضح في الشبهة الآتية.

- صابر طعيمة، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ص 141. 63

ارجعوا ما كان من أمر النبي عليه الصلاة والسلام في تلقي الوحي إلى ضعف في القوى العقلية والعصبية والنفسية، ومتى كان ضعف القوى الإدراكية يأتي بكلام معجز لا تصل إليه مطامح البشر ولو اجتهدت..⁶⁴، وحال المجنون لا يخفى، فكيف يجتمع الجنون والحكمة وكمال الخلق والخلق وما لا يحصى من الكمالات . . .

وكذلك شاكلت دعوى "مارجليوت" في النبي عليه الصلاة والسلام دعوى مشركي عهد النبوة، إذ يقول إن دعوته من أعمال السحر، _ كما سيأتي في موضوع السيرة النبوية المطهرة _، والواقع أنهم اضطربوا في إبطال مصدر القرآن الذي يتعالى على جميع معارف ومدارك وعقول البشر جميعا، فضربوا الكلام بعضه ببعض، ثم تناقلوه على ضعفه وسخفه.

ويطعنون في بنية القرآن، فيقول "نيكلسون": "والقارئون للقرآن لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات .. ولم تكن حجرة عثرة في سبيل صحابته الذين تقبل إيمانهم الساذج للقرآن على أنه كتاب الله"⁶⁵ . كما يذهب "بودلي" إلى معنى مشابه فيقول إنه نادرا ما يجد من يتناول القرآن بالشرح والتحليل، ويتحدث عب بنية القرآن فيقول: " فكانت النتيجة عملا مفككا مرقعا لا يحمل أية خطة في رأس (محمد) أو على الظروف كانت تحيط به وتؤثر فيه"، وكذلك يقول "فولتير" في السياق ذاته: "كتاب لا يمكن إدراكه، يخالف عقولنا في كل صفحة"⁶⁶.

أما في موضوع جمع القرآن فيصرون على أن القرآن الكريم، كما يقول "رينان": "لم يجمع نهائيا إلا بعد وفاة (محمد)، وبيان الأمر أن (محمد) كان يتلقى في حياته نصوصا عن الأمر الواحد فلما انقضت سنين عدة على وفاته، حمل خليفته الثالث على قبول نص نهائي للقرآن مقابلا مع ما جمعه أصحاب الرسول ... و(محمد) هو الذي يتحدث فيها باسم الله على الدوام"⁶⁷. ويقول "بودلي" مشككا إن هذه الصحف التي كانت عند حفصة هي التي قررت القرآن الكريم وعلى الرغم من ذلك فلم يلتفت كثيرا إلى هذا⁶⁸. ولا شك أن الجهل باللغة وكراهية هذا الدين هما الدافعان إلى الطعن في بنية القرآن، والإصرار على تجاهل تاريخ

- محمد ضياء الدين عتر، المرجع السابق، ص 227_314 .⁶⁴

- سعدون الساموك، المرجع السابق، ص 65.

- صابر طعيمة، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي، ص 141.⁶⁶

- عبد القاهر العاني، المرجع السابق، ص 67

- صابر طعيمة، المرجع نفسه، ص نفسها.⁶⁸

جمع القرآن وظروفه كان تغطية من قبلهم على اللمز في ما يخص جمعه، ولولا ذلك لكان في ما تحويه مصادر علوم القرآن وقراءاته الغنى الكامل في علم كل ما يتعلق بالجمع بما يشفي الصدر ويقنع العقل، ولكن ذلك لا يتأتى إلا لمن كان يريد معرفة الحق، أما من قرر قبل البدء نتائجه، وأصر بما يشبه البحث عليها، فلا يوكل إلا لمواده ورغبته.

وقد عني المستشرقون بترجمة القرآن وشرح معانيه، وكان لهم في ذلك جهد كبير على مدى زمن اشتغالهم به، وقد وثق كثير من المتخصصين عمل المستشرقين من الترجمة وترفق في بعض الأحيان والدراسة أو بملحقات⁶⁹، وقد ترجم إلى اللاتينية لأول مرة من قِبَل "روبرت أوف تشي"، و"هرمان دلماطي" (1143م)، وترجمة الأب "جرمانوس الفرنسيسكاني" وجاءت أدق من سابقتها لغة وأوفى بالمعنى (1668م) فعدت أولى الترجمات إلى اللاتينية ثم سعى بعض علماء العرب وأعلام المستشرقين إلى ترجمته إلى اللغات الأجنبية...، وإذا أخذنا جهود المستشرقين الإيطاليين المتتابة في ترجمة القرآن وشرحه وطبعه مع دراسات كنموذج عن نشاط المستشرقين عن كل الجنسيات، لوجدناها في سنوات متتابة لا تكاد تفتت (1698م)، (1893م)، (1913م)، (1914م)، (1929م)، (1925م)، (1943م)، (1957م)، مع شرح المعتزلة للقرآن سنة (1945م)، وهذا مجرد نموذج عن الترجمات.

كما عنوا بطباعته أيضا وأولها كانت سنة (1530م) وقد ذكرت في المصادر ولم يعثر لها على أثر بالنص العربي، والثانية طبعة "توما أرينوس" (لسورة يوسف) بالنص العربي مع الترجمة (1647)، والثالثة من طبع "يوهان زيشندروف" لبعض السور، والرابعة في أمستردام (1646) للسور الثلاث الأولى بحروف لاتينية من قبل "كريستيانوس رافيوس" واستعمل طريقة خاصة في رسم الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وتوالى بعدها طبع بعض السور أيضا حتى (1688)، وفي (1694) ظهرت أول طبعة كاملة للقرآن في مدينة هامبورغ بألمانيا وما زالت توجد منها بعض النسخ، وتوالى بعدها الطبقات الكاملة⁷⁰.

ومن نشاطهم أيضا في مجال القرآن الكريم وضع الفهارس له؛ وأقدم فهرس مطبوع للقرآن هو "نجوم الفرقان" سنة (1811)، وأعيد طبعه سنة (1875) في الهند، وأول فهرس عمل في أوروبا فهو الذي وضعه

- نجد عند نجيب العقيقي في كتابه المستشرقون وهو موسوعة كاملة فصلا لترجمات القرآن وشروحه عند المستشرقين في مختلف الدول، ج3، ص531_541.⁶⁹

- عبد القهار العاني، الاستشراق والدراسات الإسلامية، ص21-23، نقلا عن عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين.⁷⁰

"جوستاف فلوجل" عام (1898)، ثم قام "ميرزا محمد كاظم بك" الذي كان أستاذا في جامعة في سان بطرسبورغ، بعمل فهرس شامل للقرآن بعنوان عربي "مفتاح كنوز القرآن"، وهو يسهل للمستشرقين البحث في الموضوعات المختلفة من القرآن.

وقد حاول المستشرقون كما تذكر المراجع شرح القرآن ولكن كانت بعيدة كل البعد عن معناها في اللغة العربية فمثلاً؛ "يشرح الأب "لامانس" قول الله (إن الله مع الصابرين) إن الله مع الساكنتين على سياسة محمد" ويذهب "فلهوزن" إلى القول بأن صفات الله متناقضة في القرآن إذا وجد فيها تقابلاً كالرحمة والجبروت..⁷¹

هذه بعض النماذج عن منهجية المستشرقين في التعامل مع القرآن، وما هي إلا إشارات طفيفة، لأن المجال لا يتسع للتفصيل، ولكن المراد هو أخذ فكرة عنها كعينة⁷².

منهجية المستشرقين في دراسة السنة النبوية الشريفة:

لاحظنا في العنصر السابق كيف حرص أغلب المستشرقين على نفي نسبة القرآن لله تعالى، وحرصهم في المقابل على نسبته للنبي عليه الصلاة والسلام، وسنجدهم في دراسة السنة النبوية الشريفة يحرصون على نفي نسبتها للنبي عليه الصلاة والسلام ونسبتها لغيره لا على التعيين، وهذا دأبهم مع كل وحي أو علم إسلامي ينفون نسبته إلى مصدره، ويصرون على محو أصلته بأفواههم أو أقلامهم.

وفي ما يخص الحديث النبوي كان للمستشرقين مسلكان :

* / المسلك الأول ؛ الطعن في صحة متن الحديث النبوي الشريف،

– بدعوى أنه لم يدون ونقل شفاهاً،

– صابر طعيمة، المرجع السابق، ص126، ص129.⁷¹
– للاستزادة في دعوى المستشرقين بشرية القرآن ومناقشتها والرد عليها انظر، الاستشراق رسالة الاستعمار لمحمد إبراهيم فيومي، ص 295–
361 . وانظر أيضا النبأ العظيم، لمحمد عبد الله دراز، فصل نظرات جديدة في القرآن(1379هـ_1960هـ).⁷²

-ويدعوى الوضع في الحديث واتهام الفرق الكلامية بالوضع في العصر الأموي واستمرار الوضع

بعدها، -واتهام الفقهاء المسلمين بوضع أحاديث يؤيدون بها مذاهبهم.

هذا فيما يخص المسلك الأول،

*/أما المسلك الثاني؛ فيتمثل في الطعن في سند الحديث النبوي وفي الرواة،

- بدعوى أن فقهاء المسلمين لفقوا الأسانيد،

- اتهام الأعلام وتشويه سير الرواة من الصحابة كأبي هريرة والحفاظ وأئمة العدالة والضبط كالزهري والفقهاء كأبي حنيفة.

وقد جاءت ردود العلماء ومناهجهم في الرد عليهم كثيرة ومتنوعة، وفي غاية الوضوح والإقناع؛ ذلك أن شبهات المستشرقين إنما هي من وضع جهلهم بتراث أمة لا يعلمون عنها شيئاً، لا عن علومها ولا عن خصائصها، ولا عن أساليبها في التعلم والتلقين ولا عن طبيعة مدارك أهلها، وقدرتهم على الحفظ، فكانوا لا يتخذون غيره سبيلاً في نقل المعارف والأشعار والخطب.. ، والمستشرقون لا يعرفون اللغة العربية أغلبهم، ناهيك عن اصطلاحات علم أنشأه المسلمون العرب، واصطلاحاته نابعة من لغته؛ ومن ثم فقد جاءت أجوبة العلماء في هذا السياق معلّمة أكثر منها محاججة؛ إذ ذهب أكثرهم إلى توضيح المصطلحات التي لم تترادف في اللغة، كما لم تترادف عند علماء الحديث كمصطلح "الرواية" و"الكتابة" و"التأليف" و"التصنيف" و"الجمع" وغيرها مما يستعمله المحدثون في علمهم هذا الذي لا يدرك الغرب عنه شيئاً، وتعاملوا مع هذه المصطلحات كما لو كانت شيئاً واحداً، وحسبوا أن عدم وجود التأليف مثلاً يعني عدم وجود كتابة، والمعنيان متغايران. وقس على ذلك، فذهبوا يطعنون في الحديث باعتباره لم يدون منه شيء زمن النبي عليه الصلاة والسلام، ويفترون على السلف المحدثين والفقهاء بتأليف الأحاديث والأسانيد وفق رغباتهم وأهوائهم وبشكل اعتباطي كيفما اتفق. كما ذهب إليه "شاخ" ، وكل ذلك نتيجة الجهل بعلوم العرب والمسلمين في التوثيق، وقد كان كثير منهم نسابين .

كما رد العلماء ببيان معايير النقد للمتون والأسانيد، الذي برع فيه المحدثون حتى ألفوا الكتب في

الكشف عن الرجال، كما جاءت الردود بشرح أساسيات علم مصطلح الحديث، وما فيه من طرق

ابتكروها في نقد الأحاديث، والكشف عن درجتها، ومقاييس المحدثين، وهي مقاييس علمية؛ نفسية واجتماعية، ولم تقف عند السند في النقد فحسب، بل اعتنت بنقد المتن الذي تدور عليه مباحث المحدثين أكثر. ويمكن القول "إن هذا المصطلح على نحو ما عرفه المحدثون ليس له في الدقة مثيل في التاريخ". وما فيه من مناهج "لم يعرفها العالم إلا مرة واحدة"⁷³. ثم إن وجود الوثائق التاريخية يفند كل زعم يراد به النيل من الحديث ونصوصه وامتونه، أو الطعن في رجاله، وكما يقول صبحي الصالح في نهاية حديثه عن هذا الموضوع "المستشرقون يتقنون الحرب وأساليب الهجوم، ويتقنون إلقاء الشبهات وبث السموم، ونحن قوم لا نتقن إلا ما نعلم، ولا نعلم إلا ما نعتقد..."⁷⁴

أما النوع الآخر من الطعن، فإنه يتمثل في نفي نسبة الحديث إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ليس بطريق إثبات الوضع، ولكن بالقول إن الأحاديث نسبت إليه عمداً أو خطأً، وهي في الأصل من كلام "أصحاب الحديث الذين كانوا يصنعون الأحكام والقواعد في شكل قصص وأخبار عما قاله (محمد) عليه الصلاة والسلام في فعله في مواقف معينة، وكان ذلك نتيجة اعتقادهم الجازم أن النبي عليه الصلاة والسلام كان سيقضي في الأحكام التي نسبوها إليه حتماً فيما لو واجهته المشاكل التي وقعت لهم"⁷⁵، ومثله ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية "لا يمكن أن نعد الكثرة الغالبة من الأحاديث وصفاً تاريخياً صحيحاً لسنة النبي بل هي على عكس ذلك تمثل آراء اعتنقها أصحاب النفوذ في القرون الأولى بعد وفاة (محمد)، ونسبت إليه عند ذلك فقط"⁷⁶.

وقد تناول كثير من الباحثين المجيدين هذه المزاعم بالتفنيد، ولكن المقام لا يتسع لها جميعاً فيرجى أن تنتظر وفق الإحالة⁷⁷

منهجية المستشرقين في دراسة السيرة النبوية المطهرة:

-
- صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، عرض ودراسة، ص 319، 320. ⁷³
 - المرجع نفسه، ص 320. ⁷⁴
 - الساموك، المرجع السابق، ص. 79⁷⁵
 - المرجع نفسه، ص 80. ⁷⁶
 - راجع حاكم عبيسان المطيري، تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين، الكويت، جامعة الكويت 2002. وهو متوفر بمكتبة الجامعة. وكذا، تدوين السنة النبوية: نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع، ل محمد بن مطر الزهراني، وكتاب دفاع عن الحديث النبوي وتنفيذ شبهات خصومه، لخب الدين الخطيب، وسليمان الندوي، ومصطفى السباعي، ص 103، 108. ⁷⁷

إن أهم ما اشتهر من تناول المستشرقين في السيرة النبوية من الموضوعات ثلاث؛

*/ شخصية الرسول _عليه الصلاة والسلام_ وأخلاقه .

*/ أحداث السيرة النبوية في العهد المكي والمدني .

*/ تفسير أحداث السيرة .

وأكثر ما طبع كتابات المستشرقين فيما يخص شخص النبي _عليه الصلاة والسلام_، وأخلاقه هو

التحامل

الصريح والواضح وغير المبرر عليه، وكذا العداء المعلن عليه وضد الإسلام، ولا شك أن السبب الأول هو الحقد والحسد من ناحية، وهذا لا يختلف فيه هؤلاء المستشرقين عن أسلافهم من الكفار من كل عرق، فشبهاتهم واحدة لا تختلف في شيء، تشابهت قلوبهم فتشابهت ألسنتهم على اختلافها، فكلهم اتهم النبي _عليه الصلاة والسلام_ في شخصه بالكذب والادعاء وافتراء القرآن من عند نفسه، وكانت صياغة الكلام عند كل منهم متقاربة، فاتهموه بادعاء الألوهية، وبأنه قس مارق وأن الإسلام هرطقة مسيحية كما ذهب إليه يوحنا الدمشقي وكانت كتاباته من أخطر الكتابات لأنه أسس لمن بعده، ونسبوه إلى السحر كما فعل "مارجليوت" فقال إنه كان يجيد خدع الروحانيين ومارسها بدقة ولباقة فتبعه قومه لأنهم برأيهم سذج، ودعوته من قبيل أعمال السحر، وقالوا إنه كان مصابا بأمراض عصبية و الوحي من نوباتها العنيفة . . ، وقد ذهب إلى هذا القول غير واحد، ومنهم "نولدكه"، وأنه تعلم القرآن ثم كتبه وقد ذهبوا إليه جميعا وإن كانوا قد اضطربوا في معلميه _كما مر بنا في عنصر سابق_، أما السبب الثاني ففيه عاملان؛ الجهل بالرسول _عليه الصلاة والسلام_ و"الناس أعداء ما جهلوا"، وهذا جهل يقتسم بلا شك مسؤوليته أتباعه وأعداؤه، إذ لا يليق به عليه الصلاة والسلام أن يُجهَل، والعامل الآخر عدم الفهم للسيرة النبوية وبيئتها ونصوصها المرورية.

وقد ذهبوا إلى التشكيك في أحداث السيرة دون دليل، وتفسير أحداثها وفقا لأهوائهم أو لمواقف سلبية وأفكار مسبقة، ونفي بعضا من أحداثها دونما دليل، وطريقتهم في كل ذلك بعيدة كل البعد عن العلمية والموضوعية، وقد بدأ الاهتمام بها مبكرا، ومن أشهر من كتب فيها "بيدي" في القرن الثامن وهو من رجال

الدين، ثم كتب في القرن التاسع بعض رجال الدين الإسبان كتابات ضعيفة، وفي القرن الثاني عشر كتب "جيورج نوجنت" الفرنسي عن النبي -عليه الصلاة والسلام-، ويقول إنه لو يستند إلى أي مصدر وكذلك حال كل من كتبوا في السيرة كان ينعدم لديهم التوثيق، مما أنتج دراسات خاطئة وصورة خيالية، ثم جاءت كتابات "وليم مالمسبري" فكانت أقرب إلى الموضوعية ورد على الخيال الذي ألف حول النبي -عليه الصلاة والسلام- وحول شخصيته . .

ومن أشهر من كتب في السيرة على النمط المذكور سابقا، "جوستاف فيل" وكتب (حياة محمد) سنة 1843م و"ألمينوس سبنجر"، و"نولدكه"، و"مرجليوت" و"وليم ميور"، و"مونتيجمري" و"فيليب حتي" و"هنري لامانس" الذي أمضى عمره في عدااء⁷⁸ النبي -عليه الصلاة والسلام- .

يذهب من تتبع كتابات المستشرقين أنها كانت مصدر الصورة شكلها أصحابها للاستشراق عن الرسول عليه الصلاة والسلام، والاستشراق بدوره كرسها، وأكدها لدى الرأي العام الغربي، وقد تميز بعضها أكثر من غيره، منها صورة "يوحنا الدمشقي" وهو أول من قدمه كمتنبي وكان كتابه تحريضا للكنيسة لإعداد رجالها لمواجهة الإسلام، والصورة الثانية لـ"ثيوفانيز" ويروي السيرة محرقة وبشكل مستفز وهذا مقطع صغير منها "ولما كان محمد المذكور فقيرا ویتيما، فإنه قرر أن يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوي قراباه، هي خديجة...، وبذلك حصل على إبلها وسائر ممتلكاتها. وقد اختلط في فلسطين باليهود والمسيحيين. وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المنزلة. وأصيب كذا بمرض عصبي... فلما أن علمت زوجته بأمره، حز في نفسها وهي العريفة الأصل، قد أصبحت اليوم مرتبطة بإنسان لا يقتصر أمره على أنه فقير، بل هو أيضا مريض...، فراح يهدئها بقوله: إني تلم بي رؤية ملك من الملائكة، اسمه جبريل، ولما كنت لا أقوى على تحمل مرآه، فإني تخور قواي، وأقع على الأرض، وكان يقيم بتلك النواحي راهب، كان قد نفي لكفره واتخذته صديقا. فأخبرته خديجة بكل شيء، كما أخبرته باسم الملاك، وأراد الراهب أن يقنعها تماما، فقال لها: لقد قال الصديق. فما ذلك إلا الناموس الذي يرسل إلى النبيين كافة، حتى إذا قبلت خديجة أقوال الراهب الزائف وصدقها، أعلنت لنساء عشيرتها الأخباريات أن زوجها نبي... وهكذا انتشر الخبر بين النساء إلى الرجال، فبلغ أولا أبا بكر، الذي جعله فيما بعد خليفة من بعده.. وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته أو قل فرقته المارقة أن تحصل بالحرب على السيادة على منطقة يثرب... وكان يعلم أنصاره أن من قتل عدوا

أو قتله عدو فهو في الجنة..". ولا يختلف وصف الجنة عن سابقه كما يورده المؤلف فليطالع هناك⁷⁹، ومثلها كتابات "بارشو لوميو الرهاوي" و"يوحنا القرطبي" و"جيورجيو التوجنتي" وكلاهما يعترف بأنه لم يستند إلى مصدر ولم يتأكد من معلوماته، و"وليم الطرابلسي" الذي قال إن المسلمين يعتقدون أن جبريل نقل الإرادة الإلهية إلى النبي، وأنه بعد أن مات محمد أراد أنصاره أن يعالجوا العقيدة والشريعة، ومن ضمن كلامه أنهم طلبوا من اليهود والنصارى الذين أسلموا أن يساعدوهم، فكانوا ينتقون فقرات بأكملها من العهدين القديم والجديد ويمزجونها كيفما اتفق، ومنهم أيضا "ريكلدوس دي سانتا كروس" و"بطرس المحترم" التابع لدير كلوني و"رامون لل قطلوني"، والباعث على نقل هذه النماذج المشينة والمعيبة إنما هو ضرورة الإشارة إلى نماذج من كتاباتهم حول شخص النبي الكريم للتعرف على مناهجهم ومعاينتها، لفهم الأثر القبيح الذي ترتب عليها من تشويه وتحريف⁸⁰.

منهجية المستشرقين في دراسة الفقه الإسلامي والتشريع والقانون والنظم:

إن المنطلق المنهجي للمستشرقين في الدراسات الإسلامية واحد، فكما اعتقدوا تأليف القرآن، ووضع الحديث، وينفون عن الدين الإسلامي كل مصدر سماوي، فهم وبالأسلوب ذاته لا يعتقدون أن الفقه والتشريع من الدين ولا أنه مستمد منه، أو من أصوله (القرآن و الحديث)، بل يرونها قوانين وضعها (محمد) _ كما يطلقون على النبي عليه الصلاة و السلام، دائما ولهذا الإطلاق دلالته القوية_، لتنظيم المجتمع الإسلامي، ويرى "شاخ" أن الفقه الإسلامي لم يكن معروفا في الجزء الأكبر من القرن الأول الهجري بمعناه الاصطلاحي كما كان في عهد النبي، و الشريعة كانت تقع خارج نطاق الدين⁸¹.

وباعتبار أن الشريعة الإسلامية شاملة _ إلى جانب العبادات _ لكل ما يتعلق بالفقه المنظم للمعاملات والنظم، التي تعنى بشؤون الناس وعلاقاتهم، والدولة وعلاقاتها، فإن المستشرقين قد تناولوا جميعها، متبعين في ذلك طرقهم المعهودة من نفي الأصالة عنها، ومحاولة قطع الصلة بينها وبين الإسلام وأصوله، ورغم اهتمامهم بمجال النظم في الشريعة الإسلامي الذي كان مستمدا أصوله وروحه من مصادر الإسلام، والذي أبدع المسلمون في تقنينه، وألفوا فيه، إلا أن المستشرقين حاولوا إرجاعه إلى مصادر أخرى؛ سواء ما تعلق منها

—محمد إبراهيم الفيومي، الاستراق رسالة الاستعمار، ص361_ 375 ويورد فيه أقوالهم أو افتراءاتهم حول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام⁷⁹ وشخصه. ويورد فيه أيضا المصادر والمراجع الأوربية عن تاريخ الإسلام.⁷⁹

— للتعرف على الشخصيات الاستشراقية المذكورة راجع المرجع السابق، وانظر طبقات المستشرقين، لصالح حمدان⁸⁰.

— الساموك، المرجع السابق، ص . 81⁸¹

بقوانين مدنية واقتصادية تحكم الأفراد، حيث حاول المستشرقون إرجاع التشريع الإسلامي إلى القوانين الرومانية والبيزنطية وإلى التوراة وأحياناً إلى شريعة "حمورابي" وإلى كل مصدر آخر غير الوحي السماوي، وكذلك إذا تعلق الأمر بالنظم السياسية كنوع الحكم أو الخلافة ونظمها التي قامت عليها، والتي كانت نظماً إسلامية محضة - حاول المستشرقون إرجاعها إلى النظم الأوروبية البيزنطية والأوروبية⁸².

أما الجزية فقد عدوها نوعاً من التسلط والإذلال لأهل الذمة، بينما هي قسط يسير يدفع لدولة توفر لهم الأمن والخدمات والحرية الدينية وحياة طيبة، ولم يذكروا أن الخليفة عمر قد وضعها عن المسنين منهم وجعل لهم عطاء من بيت المال، وكذلك ردوا نظام الحسبة إلى القوانين البيزنطية⁸³، مع أنه - بما فيه من أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - إسلامي وقرآني أصيل اتخذ هذا الشكل في ميدان من المجتمع و في الأسواق.

وقد بين العلماء افتراءهم في هذه النسبة أو في التأثير بالقوانين القديمة الغربية؛ وما ينفي التأثير بالقانون الروماني، وجود نظم في القانون الروماني لا يعرفها القانون الإسلامي، كالتبني والوصاية على المرأة وغيرها..، ووجود نظم في الشريعة لا يعرفها القانون الروماني؛ كالوقف والنفقة وموانع الزواج بالرضاع، ولا وجود في القانون الروماني لعلاقة بين القاعدة القانونية والقاعدة الأخلاقية، بينما القانون الإسلامي لا يفصل بينهما، ويقوم على أساس مساواة الأفراد أمام القانون الذي يفتقده القانون الروماني⁸⁴.

وعرض المستشرقين من هذه المقولات هو التشكيك بقيمة الفقه الإسلامي الذاتية، باعتباره تشريع هائل لم يوجد مثله لأي أمة، و من أبرز من كتب لإثبات الزعم بأنه مأخوذ من التشريعات الرومانية والفارسية والهندية من المستشرقين "جوزيف شاخ" و "المستشرق" كولسن (Coulson).

ومن بين ما يثبت تهافت دعواهم فيه ما تقرر في مؤتمر القانون المقارن المنعقد بلاهاي أن الفقه الإسلامي فقه مستقل بذاته و ليس مستمد من أي فقه آخر ، لعل ذلك أن يفهم المتعنتين منهم.

وقد ركزت تطبيقات المستشرقين على ثلاثة فقهاء من مؤسسي الفقه الإسلامي، وتريد من خلالهم نسبة الفقهاء إلى نقل قوانين الغرب القديمة: * /الأول هو الإمام الأوزاعي (ت 175 هـ): ذهب المستشرقون -دون دليل- إلى أن هذا العالم درس الفقه البيزنطي في مدرسة بيروت القانونية، حيث وظف نشأته في بيروت ظناً منهم أنها تجعل لرأيهم حجة، والرد يتمثل في أن هذه المدرسة لم يكن لها وجود في القرن 2هـ، كما

- يمكنك مراجعة هذا العنصر للاستزادة فتحية البراوي، الاستشراق، ص 163، وانظر الفصل 82..

- المرجع نفسه . 164⁸³

84 - محمد الدسوقي، من مقال بعنوان "الاستشراق و الاجتهاد الفقهي، مجلة الداعي الشهرية، دار العلوم، ديوبند (الهند)، ربيع الأول 1429هـ- مارس 2008، العدد 03، السنة 32. وهو منشور على الموقع www.darululom-deoband.com

أن تراثه الفقهي يثبت أن مذهبه يقوم على الأثر وهو من مدرسة أهل الحديث، ولا يتسق ذلك مع دعوى الأخذ من أحكام غريبة مقننة.

أما الفقيه الثاني فهو محمد بن الحسن الشيباني (ت189هـ)، وهو أول من دون الفقه الإسلامي على منهج

علمي لم يسبق به، كما أنه أول من كتب في العلاقات الدولية كتابة علمية دقيقة شاملة، ويعد في الأوساط الدولية أول رائد التأليف في القانون الدولي، و أنشئت باسمه جمعيات متعددة في أوروبا و أمريكا تحمل اسم "جمعية أصدقاء الشيباني للقانون الدولي"..وقد راعتهم عبقريته فاتهموه بأنه تأثر في تبويبه مؤلفه وترتيبه الفقه بترتيب كتاب "المشنا اليهودي" فهو إذن مقلد و ليس مجددا ، و كتاب "المشنا" يضم السنة الموسوية و قد قام بشرحه عدد من الأخبار و سمي الشرح بـ"الجيمارة" و من "المشنا" و"الجيمارة" يتألف التلمود، وهو مرجع اليهود في العبادات والمعاملات وهو لم يكن مكتوبا باللغة العربية، ولم ينقل إليها إلا في أوائل القرن الرابع فمن أين للإمام الشيباني أن ينسج على منواله، ومن المصادفات الحسنة أن من أسلم من اليهود لم يكن من بينهم من تخصص في دراسة التلمود..

والعالم الثالث هو الإمام الشافعي (ت204هـ) أول من كتب في علم أصول الفقه، وصنف وأصل لمنهج البحث الفقهي تأصيلا رائعا، وكان وأمثاله من المسلمين روادا في هذا العلم، والإمام الشافعي ولد بغزة، و تنقل لطلب العلم وتعليمه في أقطار وكان له مذهب بالعراق، ثم أنشأ مذهبا آخرا في مصر بسبب اختلاف الأعراف بين البلدين⁸⁵، فكيف يدرس الفقه البيزنطي وينقله إلى بيئة غير بيئته ودين غير دينه، إن هذا لا يقبله عقل! ومن المستشرقين الذين نسبوا هذه التهم للفقه "جولد تسيهر" في كتابه العقيدة و الشريعة.

وإذا كان موقف المستشرقين من القوانين والنظم والدواوين وتنظيم الإدارات في الدولة والمجتمع على هذا النحو، إذ أرجعت في رأيهم جميعا إلى البيزنطيين سواء ما كان مستمدا من الأصول الإسلامية وابتكر، أو ما اقتبس من إجراءات تنظيمية، ورأينا كيف سلبوا منهم كل إنجاز حسن وكأهم يريدون القول بأنه لا يأتي من المسلمين وإنجازهم الحضاري خير البتة_ فكيف بنا إذا أردنا دراسة موقفهم من الحدود في الشريعة

1- بين الشريعة الإسلامية والفقه الروماني، صوفي أبو طالب، ص52، نقلا عن محمد الدسوقي، مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم، ديوبند ، الهند، ربيع الأول 1428_ مارس 2008، العدد3، السنة32، المقال منشور على موقع www.darululoom-deoband.com

الإسلامية، والتي شرعت لحفظ الأمن في المجتمع الإسلامي، أو بالأحرى هي حفظ للنفوس والأموال والأبدان، ولكن تم تناوؤها بعكس ما شرعت له، ونسبوا بعضها كالقصاص للديانة المسيحية، وأما ما خلفته من أثر طيب في حفظ ما شرعت له أخفوه ولم يظهره وفسروا الحد بالهمجية والقسوة واستعملوه لتقديم الصورة المطلوبة لمجتمعاتهم عن الإسلام كما يريدونه هم.

إن تنفيذ هذه التهم - التي أملتها نظرهم إلى هذا الدين كمصدر (للشر) فنسبوا إليه كل قبيح، وحفزهم بغضهم الشديد، حتى زوروا كل ما نطق به التاريخ المدون في كل شيء من شهادات فكانوا أبعد عن العدل والحق - يكون بلا شك بالرجوع إلى مصادر التشريع الإسلامي، في الفقه و في المعاملات و الحدود و الاقتصاد والنظم و القوانين السياسية أو ما سمي بالأحكام السلطانية، والسياسية الشرعية، وكله محفوظ في مصادر التراث الفقهي⁸⁶.

منهجية المستشرقين في دراسة التاريخ الإسلامي:

إن أهمية وخطورة تناول المستشرقين للتاريخ الإسلامي تكمن في ارتباطه بجوهر كيان المسلمين وفي صورتهم عبر مراحل التاريخ الإسلامي، و من خلاله يكون المسلمون نظرهم لأنفسهم، وعليه تبني ذواتهم التي ينبغي أن تفرض نفسها، وتسطر بدورها تاريخها... فالأمر إذن وكما هو واضح يتعلق بالشخصية العربية الإسلامية، وبرموزها وما يمثلها من شخصيات ومواقف ومبادئ شيدت حضارة عظيمة متعاقبة المراحل، واحتفظت بالروح الإسلامية التي يحاولون عزلها عنها كلما أتيج لهم المجال، كما يحاولون عزل الأمة عن تاريخها حتى لا تكون لها حاضر ولا مستقبل.

يشير عبد القاهر العاني عند تناوله منهج المستشرقين في دراسة التاريخ الإسلامي إلى مسألة في غاية الخطورة، وهي انسياب هذا المنهج وتغلغله في الشرق، عبر بعض المفكرين والأساتذة والمكوثين والمؤطرين الذين التزموا به التزاما كاملا في مجموعه أو في بعض أجزائه.

- يمكنكم مراجعة هذا المجال من الدراسات، و هو مصنف في فروع الفقه - تحت تسمية السياسة الشرعية و الأحكام السلطانية، ومراجعة أيضا ما ألف من مصادر تؤرخ للحضارة الإسلامية و قوانينها و نظمها الإدارية و منجزاتها بالتفصيل، وهي مصنفة كفرع من فروع التاريخ الإسلامي في مكتبة الجامعة وهي كثيرة جدا، وتعطيك فكرة عميقة وواسعة، والأهم من ذلك صحيحة عن حضارة الإسلام، وقد ألف فيها الكثير..

ويمكن الرجوع أيضا إلى عبد القاهر العاني، الاستشراق والدراسات الإسلامية، في فصل المستشرقون والاقتصاد الإسلامي، ص107_114 وذلك للتوسع في ما يتعلق بمبحث التشريع..

وهو يجمل أهم مميزات هذا المنهج⁸⁷ فيما يأتي:

*/ اعتمادهم على المصادر الضعيفة الواهية المنكرة ككتاب الأغاني وغيره!!

*/ استبعاد المصادر الأساسية للتاريخ الإسلامي التي ألفها علماء المسلمين ومؤرخوهم وثقاتهم، في زمن الحدث التاريخي، وفق مناهج علمية محترمة، واعتماد المصادر التي تحلو لهم ولو كانت بعيدة عن العلمية ولا علاقة لها بالتاريخ!!

*/ الجهل بتكيبية المجتمع الإسلامي المؤرخ له وأسسه.

*/ انتقاء الأحداث التي اتسمت بالنزاعات واختيار الفتن التي لا يخلو منها أي مجتمع أو تاريخ، كعينة ونموذج للتاريخ الإسلامي، وتجاهل واستبعاد المراحل الطويلة المشرقة من الخلق والعلم والمعرفة والاستقرار والإبداع والتفوق، فتجدهم يسترون ويغمطون كل ما ميز المسلمين من الوحدة التي جمعتهم على التوحيد، في خلافة واحدة في كل مراحلها، ويقدموهم كما لو كانوا فرقا متنازعة تتقاتل للوصول إلى السلطة تساوى في ذلك، حسب افترائهم، سراه الناس _ من الخلفاء _ وخساسهم.

*/ إظهار الحركات الهدامة وإبرازها كحركات تطالب بالحرية والديمقراطية (كالباطنية، والقرامطة، والبرامكة، والبهاية، والقاديانية) ويشترك فيها هذا الاستشراق الغربي وتابعه الشرقي.

*/ محاولة تفسير الأحداث التاريخية تفسيراً مادياً بعيداً عن النزعة الروحية، وبغزله وشخصياته عن مصادر دينهم وروحه التي كانت في الحقيقة دافعهم لكل ذميمة منهم سواء كانوا قادة أوفاتحين أو غيرهم.

*/ النظر إلى الإسلام على أنه دين أخذ تعاليمه وأنظمتها من اليهودية والنصرانية وأن (محمدًا) عليه الصلاة والسلام استقى أفكاره ممن سبقوه، أو بعبارة أخرى أن الإسلام لم يكن بالدين الذي يقيم تاريخاً وحضارة وأن هذه الكيانات التي تشهد عليه هي في النظرة التي يريدون إثباتها ما هي إلا محاكاة وتقليد.

*/ تصيد الآراء الشاذة والروايات الضعيفة المنكرة وترك الآراء المجمع عليها أو الغلبة وكأنها غير موجودة.

*/ غياب الأمانة في النقل واستعمال طرق التمويه، و بتر الرواية، ولي عنقها، والأخذ منها ما يفيد موضوعهم الذين هم بصدده.

*/ اللجوء أحياناً ومتى اقتضى الأمر إلى الافتراء وإصاق أخبار ببعض الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي انتقاصاً من قيمتهم .

ومن أبرز الشخصيات التي تناولت التاريخ الإسلامي بالدراسة المستشرق الإنكليزي (أرنولد توينبي ت1930) الذي قرر أن الخلافة الإسلامية كانت تمثل حكماً مستبداً في يد الحاكم، بسلطة مطلقة، تفرض الطاعة كاملة على الرعية ولا تعرف التردد، وأن النظرية السياسية للخلافة بصفتها المعلنة تبدو إلهية المصدر،

⁸⁷ -عبد القاهر العاني، المرجع نفسه، ص129، وقد أوردتها بالتصرف فيها للتوضيح..

وعليه فعلى الرعية الطاعة سواء كان الحاكم عادلا أو جائرا. ويزعم أن شرعية هذه الخلافة وضعها علماء المسلمين حين عملوا جهدهم لإثباتها والاستدلال عليها من الشرع، بتوظيف الأحاديث النبوية لتبرير تصرفات الخلفاء، وكل ذلك على غرار ما فعله رجال الدين المسيحيين في العصور الوسطى مع سلطتهم السياسية⁸⁸.

منهجية المستشرقين في دراسة التصوف الإسلامي:

لقد تناول المستشرقون التصوف كما تناولوا سائر مجالات علوم وفنون المسلمين الأخرى، فكان هو الآخر محل تأويلاتهم وتوجيهاتهم المنهجية.

ولا شك أن أهم ما يوجه للتصوف من قِبَل المستشرقين هو ما يتعلق بأصالة التجربة الذوقية الصوفية الإسلامية، حيث يجتهد كثير منهم في نسبة أصول التصوف إلى المسيحية وإلى الهنود وإلى الفرس وإلى كل دين أو عرق غير الإسلام، رغم أن التصوف في جوهره أدب ومعاملة لله سبحانه وأصوله مستمدة في الأساس من آيات القرآن في الحث على الأخلاق والصدق والإخلاص، وعلى العبودية لله وحده، وهي أيضا تأسس بالنبي عليه الصلاة والسلام في عبادته ربه وفي زهده وتوكله. إلا أنهم فسروه من خلال نظريات ومفاهيم فلسفية كنظرية الفيض ووحدة الوجود، والاتحاد وهي عقائد تعرف عند المسيحيين، فحاولوا - كما يذكر أحد الباحثين في هذا المجال⁸⁹ - من خلال تلك النظريات اقتراح عودة المسيحية دينا وسياسة وسلطة، وظلوا مصرين على استمداد التصوف أصوله من المسيحية وذهب "ماسنيون" إلى تقديم الحلاج كظاهرة للخلاص تجلّى من خلالها المسيح للمسلمين.

- يمكنكم الاطلاع على العرض المفصل لأقوال تعقيبات "أرنولد توينبي" و "جب" وإنتاجهما في هذا المجال لدى عبد القاهر العاني، المرجع

السابق، في فصل يتناول منهج المستشرقين في التاريخ الإسلامي، ص 129_135، وانظر أيضا فتحية النبراوي، المرجع

السابق، ص 145_159. وفيه أمثلة كثيرة توضح منهج المستشرقين.⁸⁸

1- هو عبد المجيد الصغير، في مقال التصوف دعوة لا مواجهة - الحركة الصوفية والتحديات الراهنة، وهو منشور على موقع www.dahsha.com

2 - المقال نفسه.

3- هذا الكلام ألقاه في جامعة الأمير عبد القادر بقاعة المحاضرات الكبرى في زيارته الأخيرة يوم 2010/01/21 DENIS GIRL وأكد كلامه الموثق و الذي جاء بعد اطلاعه على أرشيف الدولة المستعمرة.

كما حاول الاستعمار التوسع من خلال الطرق الصوفية، لكنها قاومته كما كان الحال في الجزائر فعَدَّ مقاومتها نوعاً من الفاشية، كما حاول أيضاً نشر التبشير في أوساطهم ففشل كل الفشل بينما تصوف في المقابل المبشرون وتنكسوا أمثال (رامون لول)⁹⁰.

وقد شاع بين الدارسين أن الطرق الصوفية دعمت الوجود الاستعماري في بلدانها والواقع كما بينه DENIS GIRL العالم والمحقق في مجال التصوف واعتماداً على وثائق تاريخية (أرشيف فرنسا عن الجزائر)، أن هذه الطرق كانت تلعب اللعبتين معاً أو تؤدي وظيفتين في وقت واحد؛ فهي تجامل من ناحية الاستعمار الفرنسي ببعض الشخصيات والمواقف، -⁹¹ بعد أن كاد يقضي عليها وعلى دورها حين قاومته - ومن ناحية أخرى تؤدي دورها الذي لا ينكره عاقل في الحفاظ على الشخصية الوطنية الإسلامية بتعليم القرآن واللغة العربية. والشاهد المؤيد لذلك أن أغلب الثورات في الجزائر كان أصحابها من الصوفية أمثال الأمير "عبد القادر" و"الشيخ بوعمامة" و"لالة فاطمة نسومر" وغيرهم....

هذا عن منهجهم في تناول التصوف، أما كتاباتهم وتآليفهم في التصوف فهي كثيرة وتدل على عنايتهم به، ويمكن القول أنهم تعمقوا في التراث الصوفي للمسلمين، ويقول نجيب عفيفي⁹² إنهم استقصوا "منابع الصوفية وتتبعوا تطورها وحللوها مراتبها ومذاهبها وحققوا اصطلاحاتها وترجموا لمشاهيرها" ولعل أشهرهم كان من المدرسة الإنجليزية وشهرته هذه كانت لتمييز كتابته في التصوف وهو "نيكلسون" وكتابه "التصوف الإسلامي" هو أحسن كتابة استشراقية في التصوف الإسلامي. كتبه في نقد الصوفية وترجم فيه لأصحابها وحلل مذاهبها، وتتبع أطوارها وعُدَّ حجة في التصوف الإسلامي وصدر سنة 1914، 1925، 1943) ونشر إلى لغات أخرى، وله في التصوف أيضاً "دراسات في التصوف الإسلامي" كما نشر وطبع وحقق وعلق على أمهات الكتب في هذا الفن والتي خلفها أكبر أعلامه كابن عربي، والطوسي..، ويمكن عد "نيكلسون" كنموذج عن آخرين نورد بعضهم القليل، كالنمساوي "شبرنجر"؛ ومن كتبه في التصوف "اصطلاحات الصوفية لعبد الرازق السمرقندي (1945)"، والانجليزيان "ويلسون" وله علاقة الصوفية بصفات الخالق في

92 -المستشرقون ج 3 ص 585 والكتاب متوفر بأكثر من نسخة في مكتبة الوقف "الشيخ".

الإسلام (1931)، "ومرجريت سميث" ولها "الحاسبي متصوف بغداد" (1935) ولها أيضا كتب عن "رابعة" و"الغزالي" و"الشعراني". ومن أشهرهم أيضا الفرنسي "ماسنيوس" وقد أورد نجيب العقيقي في موسوعته "المستشرقون" ما كتبت من قبلهم من كل المدارس في التصوف وقد استعرض العناوين بتواريخها ومؤلفيها ومداسهم في خمس صفحات، وبإمكان الطالب الرجوع إليها، ليرى مدى العناية التي أولوها لهذا الفن، وربما كان ذلك يعكس حاجة الأوروبيين إلى روحانية الإسلام والمسلمين.

منهجية المستشرقين في دراسة علم الكلام:

اعتنى علم الكلام بالمسائل الجوهرية والعقائدية للأمة الإسلامية، وخاصة تلك التي اختلفت عليها الفرق، كما اعتنى بكثير من المسائل الأصول، كالقضاء و القدر (و بالعدل أحد الأصول الخمسة عند المعتزلة)، ومسائل في الإيمان، ومسؤولية أفعال العباد، ومسألة الإمامة التي ألحقت بتلك المسائل الأصول وكانت محل خلاف شديد بين الفرق وخاصة بين السنة الشيعية، ومن المسائل أيضا مسألة خلق القرآن و التي أخذت جهدا وتفرغا بين جميع الفرق الكلامية ومازالت إلى يومنا هذا، وقد تناول أيضا افتراق الفرق.. فنجدته يندرج تحته من التخصصات بالإضافة إلى مسائل علم الكلام ما يتعلق بالفلسفة الإسلامية، والملل والتحل، وقد عالج المستشرقون كل ذلك في كتاباتهم وتأليفهم على اختلاف جنسياتهم. ولا يتصور أن مجالا مهما علميا يتعلق بالأصول العقائدية لدى المسلمين بجميع فرقهم، وتصاغ فيه مبادئهم وآراؤهم الاعتقادية سيكون بمنأى عن البحث أو يغفل من قبل المستشرقين، وإن لم نجد لدى نقاد الاستشراق مادة موسعة حوله، فإنه ثمة ما يشير إلى اهتمامهم البالغ حد التأليف الكثير..،ومن المنشور فيه كتاب (د ب ماكدونالد) الأمريكي المتعصب المبشر " تطور علم الكلام و الفقه والنظرية الدستورية" (1930)، وله الموقف الديني و الحياة في الإسلام 1908م.

• ومما يتناقل أيضا أن دار نشر عربية، تعمل من ألمانيا، توشك أن تنجز ترجمة كتاب "جوزف فان أس"

الضخم " علم الكلام و المجتمع في القرنين الثاني و الثالث للهجرة " ولا شك أن عنوان الكتاب يدل على أهميته وأهمية الفترة التي يتناولها فقد كانت الظروف التاريخية خلالها تعج بالآراء و المذاهب، وألف فيها أيضا الكثير من التأليف التي تقرر تلك المذاهب بآرائها ومبادئها.

وألف النمساوي "أوبرمان" علم الكلام 1915 و الحسن البصري 1935. وألف الفرنسي "جيلسون" أثر دراسة الفلاسفة العرب في تفسير علم الكلام" (1926)، وحقق الانكليزي "جيوم" "نهاية الإقدام في علم الكلام" (1934)، وله علم الكلام المسيحي والإسلامي بين "الشهرستاني" و"توما الإكويني" (1950)، و"ترتيون" وله "علم الكلام في الإسلام" (1947).

وحقق الأب "مكارتي" وهو من الرهبان اليسوعيين كتاب "اللمع" للأشعري، مع إعادة نشر كتاب "استحسان الخوض في علم الكلام" للأشعري، بترجمة إنجليزية (1954)، وكتاب التمهيد للباقلاني (1957) وكتاب "البيان" له (1958) وكشاف بمصنفات الكندي (1963)، والبلجيكي "آرمان آبييل" وله "الجدل الدمشقي وأثره في علم الكلام الإسلامي" (1961). وللبولندي "كنابرث" اصطلاحات علم الكلام ومؤلفات أخرى له. ورغم أنها نسبيًا كثيرة، لكنها لا تقارن بغيرها من التصانيف⁹³ في التخصصات الأخرى كثرة.

وإذا جمعنا واستحضرنا مناهج المستشرقين في التعامل مع مصادر الإسلام ومع علومه، ومع التاريخ

الإسلامي و المجتمعات الإسلامية في إثارة النعرات الطائفية والاستفادة منها، مع طبيعة مجال علم الكلام الذي يتناول أساسًا مسائل عميقة في العقيدة الإسلامية وخلافية وشائكة للغاية، ولا يقال لمن أخطأ فيها أخطأت بل يقال له - وقد قيل - كفرت...، يمكننا أن نتصور كيفية منهجهم في البحث وآثاره على هذه الموضوعات وعلى الفرق الإسلامية وعلى الأمة الإسلامية..

مدارس الاستشراق واتجاهاته:

إن أهداف الاستشراق كانت من أهم محدداته، ومدارسه كانت في خدمة أهدافه، وتلك الأهداف اتحدت - رغم تنافس أصحابها - في اقتسام أرض الشرق، كما شهد به التاريخ، واتحاد الأهداف وتشابهاها راجع لوحدة المطامح عند الدول التي تنتسب إليها المدارس في جنسيتها وولائها، وقد تنوعت المدارس بحسب الإيديولوجيات والفلسفات التي تحكم سياسة كل دولة، ولذا تكونت الاتجاهات في الاستشراق وفق الإيديولوجيات.

- نجيب العقيقي، المستشرقون، ج3، ص584_585. 93

ومن ثم فإن الحديث عن مدارس الاستشراق يندرج تحت اتجاهاته المحددة له؛ ذلك أن مدارس الاتجاه الواحد تتشابه في الأساسيات أي في طرائقها وأهدافها، والتفاوت بينها إنما هو في التفاصيل الخاصة بنشوتها وبداية عملها، والاختلاف بينها يكمن في أمكنة نشاطها وأزمته، بمعنى أننا إذا ضربنا المثال بالاتجاه الديني كما ستأتي تفاصيله، فهو في خطوطه العريضة ومحدداته واحد، والفرق بين المدرسة البريطانية والفرنسية طفيف جدا، وخاصة إذا ما قارناه بالفرق بين الاتجاهات حيث يكون أعمق بكثير.

وفي هذا المثال كلتا المدرستين بدأت نشاطها ودراساتها في القرون الوسطى، (البريطانية في القرن ال12م، والفرنسية في القرن ال13م)، واستمرت وتطورت بعد ذلك وازدادت بشكل واضح في القرن ال16م، وكلتاهما بدأت بنشاط تبشيري وأولته جهدها ورعايتها، مع الجدية والإخلاص الكبير للسياسة الاستعمارية وخدمة أهدافها، فقط كانت لكل منهما منطقة تختلف عن الأخرى مع وجود التنافس الشديد بينهما ما دام الأمر قد تعلق بالمصلحة المادية، وكلتا المدرستين كانت سباقة إلى تأسيس الجمعيات والإرساليات التي تعرفنا على نوع نشاطها ومساحته المترامية، وإلى إنشاء الكراسي للغة العربية وآدابها وإقامة المعاهد الجامعية لهذا الغرض، واجتهدت في تأسيس كل القنوات التي تيسر لهم الانتشار، فلم تبخل بالميزانيات المالية الكبيرة على نشاطها، لما تتوقع له من ثمار، كما تشابه انكباهم على العلوم الإسلامية والشرقية عموما فقط كان لكل واحدة منها تركيزا على بعض الاختصاصات دون الأخرى، وتفاوتت المدرستان في التصريح بالحدد للإسلام ولشخص النبي عليه الصلاة والسلام، ولم تختلف المدرسة الإيطالية نظيرتها السابقتين، وإن كانت درجة النشاط المكافئ عادة للتوسع الاستعماري أقل بطبيعة الحال لاختلاف الحظوظ فيه!

ولأن تقديم المدارس يتطلب الرجوع إلى تاريخ كل مدرسة ونشأتها، وتفصيل نشاطها ومؤسستها؛ من جامعات ومعاهد وكراس وجمعيات ومنظمات وإرساليات ومكتبات، وأشهر أعلام كل مدرسة، وتصانيفهم، ومجلاتهم، وغيرها كثير مما لا يتسع المقام له _ولا لبعضه_، فيرجى الرجوع إلى المصادر المصنفة فيها والمشار إليها في الهامش⁹⁴

1-نجيب العقيقي، موسوعة "المستشرقون" في ثلاثة أجزاء، تحوي تفاصيل كل مدرسة في كل ما يتعلق بها، وفي المكتبة الوقفية يوجد منها 94 نسختان، وانظر كذلك الاستشراق لفتحية النبراوي، والوجيز في الاستشراق في المدارس والأعلام منهم، وانظر في موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوي، وطبقات المستشرقين لعبد الحميد صالح حمدان تراجم الأعلام من المستشرقين .

الاتجاه الديني:

والاتجاه الديني كما تشير النسبة إليه ذو منطلق ديني، وأهداف دينية، وترعاه غالبا بشكل مباشر أو غير مباشر مؤسسات دينية، وفي تاريخ الاستشراق رعته ووجهته مؤسسات نصرانية ويهودية لخدمة أهدافها المتنوعة الدينية وغير الدينية؛ من ناحية لأن الأهداف تتداخل ويخدم بعضها بعضا، ومن ناحية أخرى لأن مفهوم الهدف المادي قد يتحول إلى مفهوم ديني فيصير هدفا دينيا، كما هو الحال مع الاحتلال اليهودي للأرض الفلسطينية، أوقد يتحدان، كما حدث في كل احتلال أوربي للشرق، ولكن غالبا ما كانت المؤسسات المسيحية هي التي تظهر في الواجهة، بينما تعمل الجهود الدينية اليهودية أو بالأحرى الصهيونية من خلالها بانخراط أهم أعلام الاستشراق ممن هم على الدين اليهودي فيها وبلوغ مآربهم _ كما فعلوا _ دائما من خلالها..

ويرى "النملة" أن دراسة الاستشراق الغربي للديانات الأخرى الشرقية تختلف تماما عن دراسته للإسلام، إذ تخلو طريقتة في تناوله للديانة اليهودية أو البوذية من روح العداة والحقد الذين يطبعان دراساتهم.. ولا شك أن أهم معقل للاستشراق كان متمثلا في دولة الفاتيكان، والتي رغم كونها صغيرة المساحة، إلا أنها أدت أكبر وأخطر الأدوار في قيادة أوربا على كل صعيد؛ وفي توجيه المؤسسات ذات السلطة، وتجنيد الكنائس والجيوش من القسس نحو التبشير، وأنشأت كل القنوات التي سبق ذكرها، والجمعيات التي تنظم مؤتمرات تؤلف فيها بين الفكرين اليهودي والمسيحي⁹⁵. ولأنها تسوس أوربا والعالم المسيحي فقد سخرته بما فيه من مؤسسات لخدمة توجهها، والمؤسسات الاستشراقية كانت رائدة وفاعلة (راجع المدارس التابعة لهذا الاتجاه؛ المدرسة البريطانية والفرنسية والإيطالية والأمريكية والإسبانية والهولندية في المراجع الواردة في الهاش).

الاتجاه الإلحادي:

- الساموك ، المرجع السابق، ص31.95

وتمثله الإيديولوجية الشيوعية والتي تعد مذهباً رافضاً للدين ومعادياً له مهما كان مصدره، وتحمل عليه سواء كان سماوياً أو وضعياً. وهي كما هو معلوم عنها لا تعترف بأي دين أو إله إلا المادة. وهنا تختلف في منطلقها عن منطلق اليهودية أو النصرانية التي تقر بالدين رغم عدائهما المعلن للإسلام، ليس لأنه دين بل لتعلقه خصوصيته التي تهدد كياناتهما.

وأساس رؤية المدرسة الشيوعية للاستشراق مادي "يعتبر العوامل الاقتصادية المحرك الأساس في حياة الإنسان، ولا يعترف بأية عوامل أخرى. وتتهم الشيوعية الأديان بأنها مستغلة للشعوب ومؤدية إلى سيادة المذاهب الاقتصادية المدمرة للحياة البشرية مثل الرأسمالية، والاعتراف بنظام الملكية الخاصة. وهو من وجهة نظرها نوع من الإقطاع الذي ينتج عنه تركيز الثروة في طبقة بعينها وحرمان بقية الطبقات".

واعتماداً على التفسيرات السابقة عمدت الشيوعية إلى نشر فلسفتها المناهضة لكل ما هو ديني في العالم بأسره، واستعملت الاستشراق كأداة أيديولوجية يعينها في هذه المهمة، فكان الاستشراق الشيوعي هو الوسيلة الدعائية لتوصيل الأفكار الشيوعية إلى الشعوب الأخرى. وجندت عدداً كبيراً من مستشرفي هذا الاتجاه للتخصص في الإسلام والمجتمعات الإسلامية. ووضعت هذه المدرسة صياغة لتصور شيوعي للإسلام! يحاول أن يجمع بين شيئين لا يجتمعان، ولا ندري أيهما القلب ولا أيهما القلب إن كان فيهما قلب وقلب... ومع ذلك وجد من تبنى هذا الاتجاه من المشتغلين بالفكر من العرب وعمل جاهداً لتطوير صياغته وزرعه في بيئة المسلمين قبل أن يبوء بالفشل الذريع بعد انهيار المعسكر الشيوعي وفلسفته.⁹⁶

الاتجاه العلماني:

ومرتكز هذا الاتجاه كما تدل عليه النسبة إلى العلمانية؛ الفصل بين ما هو ديني وبين ما هو دنيوي، كما كان مدلول لفظة العلمانية آنذاك، أي زمن الصراع بين السلطة الكنسية وبين سلطة العقل ومن ثم سلطة الدولة، ويذهب أصحاب الاتجاه العلماني إلى رفض المرجعية الدينية عموماً، سواء كانت يهودية أو نصرانية، والاحتكام إلى مرجعية العقل وحده، باعتباره المصدر الذي يحقق الموضوعية والعلمية في الدراسات والأحكام، ويلاحظ أنه يشترك مع الاتجاه الإلحادي في ترك الرجوع إلى الدين، بينما لا يتبنى الأيديولوجية الشيوعية، وقد يحتفظ بخصوصية الدين على المستوى الفردي..

⁹⁶ www.madinacenter.com - علي بن إبراهيم النملة، موقع

ويذهب المتخصص في الاستشراق "نجيب العقيقي" في موسوعته "المستشرقون" إلى تقسيم العلمانيين منهم إلى فئات خمسة؛ فئة من طلاب الأساطير والغرائب والأهاجي، ولم يكونوا من ذوي العلم، وفئة من المترقة، أفلامهم مأجورة لذوي المصالح، وفئة ثالثة متغطسة، تنظر للإسلام على أنه قليل الشأن، من أمثال "بدويل" و"بريدو"، وفئة رابعة تعرضت للإسلام من غير أن تخصصه بالنقد، لأن دأبها نقد الأديان جميعا وفق منهج واحد، أما الفئة الخامسة فهي فئة أنصفت للإسلام، وإن لم تدن به، ومنهم من ذهب به إخلاصه إلى اعتناقه، وهم كثر، و يسرد العقيقي أسماءهم وما أسند إليهم من العمل من قبل مؤسسات إسلامية علمية فيما يزيد عن الصفحتين⁹⁷. مواقف العلماء والمفكرين المسلمين والعرب من الاستشراق، أو رؤاهم وتقويماتهم للاستشراق:

*/ أصناف المستشرقين:

يذهب أغلب الكتاب والمفكرين الذين تخصصوا في الدراسات الاستشراقية، وخاصة منهم ذوو الموقف الواعي بالاستشراق، إلى التأكيد على وجود أصناف من المستشرقين، ونجد "إدوارد سعيد" وهو أحد أكثر المؤلفين الذين اتهموا بأنهم حملوا على الاستشراق واتهموا بالعداء للغرب، بكتابه "الاستشراق"، يرد في كتابه "تعقيبات على الاستشراق" موضحا موقفه العلمي الذي قاعدته التفريق بين الاستشراق والمستشرقين ويكد على ذلك بقوة. والحقيقة التي أجمع عليها المفكرون والعلماء العرب، والتي لا يمكن إغفالها بأي حال من الأحوال هي

أنهم ليسوا جميعا من مكرّسي ومنفذي سلطات الدول الاستعمارية، ذات السياسات الإمبريالية في الشرق باتخاذ ستار العلم، بل منهم مستشرقون منصفون علميون لهم مواقف مشرفة ونزيهة في خدمة العلوم جميعا⁹⁸، وهم يستحقون الاحترام والتقدير، ولذلك نجد من الباحثين من يخصص لهم في كتبه نصيبا، ويعترفون بتجردهم وبفضلهم في إخراج المخطوطات وتحقيقها وخاصة تلك التي تنفع العلم والمتعلمين وتشري المكتبات ولا تهدف للإضرار بتراث المسلمين وتحريفه.

*/ مواقف المسلمين والعرب منهم:

- راجعها في ج3، ص622_619.⁹⁷

- راجع بهذا الصدد، فتحية البراوي، الاستشراق، وفيه خصصت جزءا من فصل سمته المستشرقون الموضوعيون.⁹⁸

لا شك أن مواقف علماء ومفكري الإسلام والعربية من الاستشراق كثيرة ومتعددة، ولا يمكن إحصاؤها ببساطة، خاصة وأن لكل طريقته في التفكير والتحليل، ولكل مرجعية يحتكم إليها في إصدار مواقفه واستدلالاته وأقضيته.. ومن المتخصصين من يحاول جمعها بحسب أشهرها إلى ثلاثة مواقف كبرى وذلك تيسيرا لفهمها وإن كانت لا تخلو من الاشتباك والتداخل، وقد اخترت تقسيما واضحا ومبررا للباحث المتخصص في الاستشراق "علي بن إبراهيم النملة"، وقد جعلها على ثلاثة مواقف⁹⁹:

أ/ موقف القبول المطلق:

وهو أكثر المواقف شيوعا وأقدمها ويتسم بالتأثر المباشر والقوي بالمناهج التفسيرية الحديثة التي أظهرها المستشرقون لموضوعات العلوم الدينية كالسيرة والتاريخ، كما أعجبوا بمعلوماتهم الجديدة في هذا المجال. ويبدو أن هذا الموقف يمكن تفسيره بافتتاحهم بمؤلاء الدارسين الجدد لدين لا يتبعونه، وقد تظهر في حديثهم عنه بعض الإيجابية، ورأوا أنهم يقدمون خدمة كبرى للإسلام وعلومه. ولا شك أن ثمة دوافع نفسية وراء موقف الانبهار هذا، وربما كان ذلك نتيجة النهضة المادية للغرب، واستعلائه العسكري والسياسي، وفي المقابل تراجع الشرق ووقوعه تحت سيطرة الغالبين، إذ أنهم يبررون انقيادهم المطلق وقبولهم ذاك بكل نتاج المستشرقين الفكري والمنهجي، بضرورة قبوله مثل قبول التقنيات الحديثة الغربية! لقد بلغ تأثيرهم واستسلامهم إلى حد قول بعضهم "وهو على أي حال أعرف منا بأنفسنا، غنه يملك التسهيلات والمنهج فلماذا لا يملك حصيلتهما.."¹⁰⁰. وكثير من الدارسين للمستشرقين يرون لهم يدا على تراث المسلمين بل وعلى المسلمين والعرب جميعا، وفضلا لا يمكن الإحاطة به، حتى يبلغ به الأمر في بعض المواضع إلى تقديمهم كشهداء لتراث المسلمين؛ فتجده يذكر من تعرض للإفلاس والسجن، ومن كف بصره فيه، ومن أنفق ثروة طائلة عليه، ثم تعرض للإفلاس بعدها، ومن لقي مصرعه، أو قتل أو ذهب ضحية له¹⁰¹!

.. ويرجع ذلك إلى محض حبهم للعلم وللشرق، وكأنهم لم يكن لهم أي فائدة من ذلك العمل، ولم يستثمروه في شيء، ولا يدري من الذي حول ونقل الآلاف المؤلفات من المخطوطات إلى مكتبات دولهم، فضلا عن

– من أوضح الدراسات في هذا المجال دراسة علي بن إبراهيم النملة، في كتابه مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين_ استقرأ للمواقف، ص18_38ص.99

– المرجع نفسه، ص19.100

– انظر موسوعته المستشرقون ج3، ص598_625 ففي بعض المواضع من هذا الفصل يكثر من الدفاع عن المستشرقين، ويعدد أيادهم على تراث الشرق ويشيد بعلميتهم التي أخرجت تراث الشرق إلى النور..¹⁰¹

مكتباتهم هم الخاصة والتي يذكر منها هو ذاته مكتبة "جولد تزيهر" ويقول إنها أربت عن أربعين ألف مجلد في العلوم والفقه والفلسفة ويعدد تخصصاتها، ثم يشيد بما وضعه من تعليقات وحواشي يقول إنها أعطتها قيمة علمية و الحقيقة أنها قد كانت ذات قيمة علمية بالغة قبل حواشيه.. ، بل وينفي عن الاستشراق أي عمل مؤسسي أضرب بوجود الشرق ومصالحه أضراراً بالغة وإذا اضطر للحديث عنهم فإنه يحصرهم في نزر قلة لا تذكر. ولا شك أن موقف هذه الفئة ينقصه التوازن ويصدر عن نظرة لا تحسن تبيين التراث، وتبالغ في قبول الآخر المستشرق والإشادة به..

ب/ موقف الرفض:

هذا الموقف هو على طرف النقيض للأول، ويتميز أصحابه _ كما يدل العنوان _ برفض كل إنتاج أو إسهام للمستشرقين في الثقافة الإسلامية؛ باعتبار أنهم لا يدينون بالإسلام، فيذهبون إلى أن علومهم تلك أوربية، تعكس فلسفة ورؤية تتبع دينها ومنطلقاتها، فلا يرون ما جاءوا به حجة، ولم يعدوه شيئاً، حتى لو كان إطرأ ومدحا، بل إن ذلك يزيد من تحفظهم تجاهه، ولا شك أن رأياً كهذا له أسبابه، وارتياحهم راجع لممارسات الشريحة الواسعة من المستشرقين الذين غزوا تراث الأمة وتناولوه وفق أغراضهم، وقد سبق الحديث عنهم ..، ومن النماذج عن كتابات الراضين لتدخل الغرب في ثقافة الشرق ، نص لـ"محمود شاكِر" في رسالة "في الطريق إلى ثقافتنا" يصف المستشرق «فتى أعجمي ناشئ في لسان أمته وتعليم بلاده، ومغروس في آدابها وثقافتها(ألماني، أو إنكليزي، أو فرنسي)، حتى استوى في العشرين من عمره أو الخامسة والعشرين، فهو قادر أو مفترض أنه قادر، تمام القدرة على التفكير والنظر، ومؤهل أو مفترض أنه مؤهل، أن ينزل في ثقافة ميدان "المنهج" و "ما قبل المنهج" بقدم ثابتة. نعم، هذا ممكن أن يكون كذلك؛ ولكن هذا الفتى يتحول فجأة عن سلوك هذا الطريق لبدأ في تعلم لغة أخرى، (هي العربية هنا)، مفارقة كل المفارقة للسان الذي نشأ فيه صغيراً، ولثقافته التي ارتضع لباثها يافعا، يدخل قسم "اللغات الشرقية" في جامعة من جامعات الأعاجم، فيبتدئ تعلم ألف، باء، تاء، أو أبجد هوز، في العربية، ويتلقى العربية نحوها وصرفها وبلاغتها وشعرها وسائر آدابها وتواريخها، عن أعجمي مثله، وبلسان غير عربي، ثم يستمع إلى محاضر في آداب العرب أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسان غير عربي، ويقضي في ذلك سنوات قلائل، ثم يتخرج لنا « مستشرقاً » يفتي في اللسان العربي، والتاريخ العربي، والدين العربي ! عجب وفوق

العجب! «. كما يذهب مالك بن نبي إلى تقييم الاستشراق بأنه «كان شرا على المجتمع الإسلامي لأنه ركب في تطوره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والإطراء، التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أو في صورة التفتيد والإقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم عن مجتمع منهار، مجتمع ما بعد الموحدين، بينما كان من واجبنا أن نقف منه عن بصيرة طبعنا ولكن دون هوادة، ولا نراعي في كل ذلك سوى مراعاة الحقيقة الإسلامية غير المستسلمة لأي ظرف في التاريخ دون أن نسلم لغيرنا حق الإصداع بهما والدفاع عنها لحاجة في نفس يعقوب»¹⁰².

ج/ موقف المواجهة:

ويقصد به واضعه¹⁰³ موقف فريق من الدارسين للاستشراق، تعمقوا في بحثه والتعرف عليه، فعلموا مواضع القوة والضعف فيه، وأمكنهم التمييز بين صحيحه وسقيميه، واعتمدوا على أرضية راسخة تتمثل في الثقة بذواتهم وبدينهم وصحته، وتمكنهم من التصرف في هذا الإنتاج الاستشراقي بالأخذ والرد؛ أي رأوا أن يأخذوا الحسن منه، ويدعوا قبيحه، ويبينون قبحه وضلاله، وعدوا هذا المنهج منهج مواجهة إيجابية، لأنه لا يقبل ما جاءوا به على وجه التسليم والإعجاب المطلق، والانبهار، ولا يرفضه كله على أنه الشر المحض، لأنه من إنتاج المستشرقين دون النظر فيه، كما هو حال فريق الرفض، ومرّد موقفها هو اعترافها بوجود مستشرقين باحثين عن الحقيقة بنزاهة وموضوعية ومن أهم مميزات هذا الموقف؛ المعرفة بالإنتاج الاستشراقي والقدرة على تقييمه، والمشاركة في مختلف فعاليات ونشاطات المستشرقين من ندوات وغيرها قصد المشاركة فيها والحرص على وجود الصلة بعلمائهم الموضوعيين، ومشاركتهم الحضور بفاعلية، كما يميزهم النقد، ولكن بعد اطلاع وبوعي، بحيث يشجعون العمل المنصف ويتبنونه، ويساهمون في أعمال ينبغي أن يكون القائم عليها من أهلها والمقصود بما ما كان من جنس ترجمة معاني القرآن بدقة من قبل من يتقن هذا العمل، ولأنهم الأكثر اطلاعا فهم يطمحون إلى تنقية تراث المسلمين مما خالطه مما ليس منه، والأهم من ذلك إقامة المراكز

– كلا النصين منقول من مصادر معلومات، ص23 و 24 وفيه تفصيل جيد لمواقف الرفض وأسبابها وتعليقاتها، فانظره .¹⁰² ينسب علي النملة هذه التسمية التي استعملها في كتابه مصادر معلومات السابق، لـ"عبد النبي اصطيف" في مقال بعنوان "نحن والاستشراق:

¹⁰³ - ملاحظات نحو مواجهة إيجابية"، مجلة مجمع اللغة العربية (دمشق) مج59 (1404هـ_1984م)، ص116_135.

وإنشاء المنظمات الفكرية والعلمية والتربوية، التي ينبغي أن ترعى الفكر والتراث الإسلاميين، وتقويتها لتسد الفراغ الخطير في الجانب العلمي والفكري¹⁰⁴.

وما يسم تعامل أهل هذا الموقف أنهم لم يعاملوا المستشرقين معاملة واحدة، وأقروا منطلق التفريق بينهم، ولم يكونوا من ذوي الأفكار المسبقة أو المصادرة على المطلوب، واعترفوا لهم بجهدهم، وقد تحصل منهم الأخطاء كما تحصل من غيرهم، بل إن منهم من تصدى لمن كانوا من المرتزقة منهم أو المتعصبين بأفضل مما فعل علماء المسلمين.

ولا شك أن من هذه المواقف الثلاث يمكن تشكيل مواقف أخرى بحسب المادة الاستشرافية، وبإمكان كل دارس أن يقوم ما توافر له من الاستشراق من مواقف علمية أو إنتاج علمي، ويختار له المنهج والمناسب والموقف أيضاً، وبمعنى آخر؛ إننا لسنا ملزمون بالأخذ بواحد من هذه المواقف على الإطلاق، بل بيد كل باحث تحديد كيفية مقارنته الخاصة والتي يمكن أن يؤلف فيها بين ما ينبغي له من المواقف الملائمة باختلاف الأحوال والمعطيات.

قنوات المستشرقين؛ نشاطهم ووسائلهم في الانتشار:

أما قنوات الاستشراق فهي قديمة وحديثة بحسب ما استحدثت في كل عصر؛ أما القديمة، والتي كانت قنوات أساسية لدى أقدم المستشرقين وما زالت مستمرة وقائمة، وما زالت إلى اليوم تؤدي دورها بفاعلية كبيرة، منها:

*/ المكتوبة: كالتأليف، والتحقيقات؛ ولا شك أن هذه تعد أهم المصادر على الإطلاق وتكمن

أهميتها في كونها القاعدة التي أسسها المستشرقون، وفي كونها مرجعية للتفكير الغربي، وللمتأثرين به من الشرقيين، ولأنها المنظومة التي يتم تكوين الأجيال فيما يخص الشرق و الإسلام، وفقها في مختلف المراحل، وفي الجامعات خاصة، والأهم فيها على الإطلاق أن هذه التأليف هي التي تلقي منها متأخرو المستشرقين هذا المنهج عن متقدميهم...، ومنها يتلقى ويُسْتَلْهم المنهج الذي استعمل في نشر صورة الإسلام ورموزه

-علي النملة، المرجع السابق، ص 29_ 34. 104

ومصادره والمسلمين على النحو الحاصل الآن في تصويرهم على أقبح صورة، ومنها أيضا تُستلهم المناهج والفلسفات المعادية للإسلام معطياتها.

ومن أمثلة التأليف؛ إن ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف القرن منذ أوائل ق19 حتى منتصف ق20 ستين ألف (60.000) كتاب.

- دائرة المعارف الإسلامية بالانكليزية والفرنسية والألمانية (1913 - 1938) الطبعة الجديدة (1945) وحتى عام (1977).

- المعجم المفهرس (الكتب الستة والمسند). 07 مجلدات ابتداء من 1936. ومنها */وسائل الإعلام:

1/ المقروءة (كالمجلات و الصحف):

وتتميز بمخاطبة وتشكيل الرأي العام للقارئ الغربي و الشرقي أيضا ولها تأثير قوي ومستمر.. كالمجلات الاستشراقية؛ ولهم اليوم عدد هائل يزيد عن (300) مجلة متنوعة ومن أشهرها "مجلة العالم الإسلامي" أنشأها زويمر (ت1952م) في بريطانيا سنة 1911م، و"مجلة عالم الإسلام" في بطرسبورغ من 1809م إلى 1818، و"مجلة الإسلام" ظهرت في باريس سنة 1895م، ثم خَلَفَتْها عام 1906مجلة العالم الإسلامي التي صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية في الغرب. وفي عام 1910 ظهرت "مجلة الإسلام". ولطالما هذه الكيانات تخدم الاستعمار ومن أمثلة ذلك:

"مجلة الإسلام الألمانية" مؤسسها "كارل بيكرت" عام 1933م، وتخدم أهدافا استعمارية.

"مجلة الإسلام الروسية" مؤسسها روسي، وتخدم أهدافا استعمارية روسية.

2/ الوسائل المسموعة و المرئية (كالإذاعات والقنوات التلفزيونية أو الفضائيات، والانترنت..). هذه الوسائل تخاطب أوسع فئة من الناس على جميع المستويات العلمية والمعرفية والاجتماعية والعرقية، ولها تأثير بالغ في تشكيل تصورات وأفكار المتلقين، وهي تستمد ثقافتها ومرجعيتها من المصادر الأساسية، وقد سلف ذكرها وهي عامل مهم ونشط في تكوين صورة العالم الإسلامي و الشرقي عند الغرب.

أمثلة عن قنوات الاستشراق الأخرى:

*/الانخراط في الجمعيات اللغوية العربية: مثل ما كان من أمر "جب" و"مرجليوت" الانجليزيين و"ماسنيون" الفرنسي، و"نينكلسون"، و"جريفني" و"نالينو" الايطاليين، و"هارتمان" و"هوتمان" الألمانين وبعضهم جمع العضوية بين الجمعيتين اللغويتين في دمشق والقاهرة إبان الاستعمار.

*/ التنظيمات: كالإرساليات والجمعيات الاستشراقية والرابطات، ومنها ما هو رسمي تابع للدولة أو غير رسمي، ودورها يتمثل في التنظيم و التنسيق للعمل الاستشراقي. ولكونها جمعيات؛ فهي تتمتع بحرية التنقل لأفرادها والعاملين ضمنها بشكل عام، كما تتميز بالمرونة في أساليبها المتعددة، وقد وصل نشاطها كما سبق وأن رأينا، إلى أبعد وأعمق نقطة من الشرق و المغرب العربي، ومن كل قطر تريد الوصول إليه.

وهناك العديد من الجمعيات الاستشراقية؛ من الأمثلة عليها: الجمعية الآسيوية في باريس تأسست عام 1822م، والجمعية الملكية في بريطانيا وإيرلندا عام 1823م، والجمعية الشرقية الأمريكية عام 1842م، الجمعية الشرقية الألمانية عام 1845م. أما تمويلها فتمتلكها من قبل دولها ومصادر غير رسمية، ومؤسسات رسمية.

ومن الأمثلة على أدوار الإرساليات، وبعض نشاطها التنصيري والاستعماري، والتنسيق بين مختلف فروعها، «إمداد الإرساليات التبشيرية النصرانية واليهودية بالخبراء من المستشرقين . وكانت الإرساليات التبشيرية عبارة عن مجموعات عمل رسمية حكومية أو مجموعات أهلية خاصة ، وقد اهتمت الإرساليات التبشيرية اليهودية بالثقافة اليهودية ونظمت رحلات استطلاعية إلى فلسطين بالاستعانة بالمستشرقين من نادي "المكابيين" الذي تأسس في لندن عام 1891 ، وكانت اول رحلة استطلاعية بمشاركة 21 شخصا ساهمت بتزويد المؤتمر الصهيوني الأول في بال السويسرية عام 1897 بالصور والمعلومات عن فلسطين تمهيدا لإقامة " الدولة اليهودية " فيها»¹⁰⁵.

*/ الجامعات والمعاهد والكراسي المفتوحة فيهما، والمدارس والمكتبات . :

ولا يخفى ما للمؤسسات التعليمية و المنظومات التربوية، و المناهج الأكاديمية من أهمية ودور خطير وفاعل، خاصة إذا تميز أصحابه بالنظام و التخطيط و التنفيذ و المتابعة، وكل منهجية تساعد في تحقيق الغايات، وقد اتسمت الكراسي التي أنشئت منذ القرون الأولى للاستشراق المنظم بكل تلك السمات، ثم توسعت بعد ذلك كما رأينا في كل دول أوروبا في معاهدها وجامعاتها وكان لهما من الدور المهم في تحقيق

– إبراهيم عبد الكريم ، الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل ، مرجع سابق ، ص 37 – 38 نقلا عن كمال علاونة في مواجهة www.israj.net الاستشراق والإهانات الغربية لخير أمة أخرجت للناس، من موقع ¹⁰⁵

أهداف دولها وسياساتها وما زالت. وأغلب الكراسي مشهورة وخصص لها الباحثون مساحات واسع في موسوعاتهم¹⁰⁶. ولا بد من الإضافة والتأكيد على "مراكز الأبحاث والدراسات بالجامعات الإسرائيلية التي تهتم بدراسة التراث وتقوم بتحويل التاريخ وتشويهه لخدمة أهدافها في فلسطين غير التاريخ"¹⁰⁷، كما أن باقي الكراسي في خدمتها في الجامعات الأوروبية الأخرى لطبيعتها الأخطبوطية.

*/ الوجوه المستعارة: أي التأليف ونسبته إلى أسماء مستعارة¹⁰⁸.

*/ المؤتمرات والجمعيات:

عقد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس سنة 1873م. وتتابع المؤتمرات حتى بلغت أكثر من ثلاثين مؤتمرا، فضلا عن الندوات واللقاءات الإقليمية الكثيرة الخاصة بكل دولة من الدول كمؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة "درسدن" بألمانيا عام 1849 وما تزال تنعقد باستمرار حتى الآن. ويحضر هذه المؤتمرات مئات من علماء المستشرقين حيث حضر مؤتمر أكسفورد (900) عالم من 25 دولة ثمانين 80 جامعة و 69 جمعية علمية.

*/ الفنون:

وتميزت فنونهم بتقليد الأنماط الشرقية، و تصوير الشرق في الفن والأدب.

*/ الأدب:

ومن أمثلته: "مونتييسكو" في الرسائل الفارسية 1721. و "توماس مور" في lalla، ومن أشهر النماذج في التأليف الأدبي أيضا "صمويل تايلور" كولريج وعنده نماذج كثيرة. وكذلك "أناتول فرانس" 1890.

- بإمكانك الرجوع إلى موسوعة بدوي أو موسوعة العقيلي عن المستشرقين، وفيها كراسي الاستشراق في كل جامعة وفي كل بلد أنشئت فيه.¹⁰⁶
www.israj.net - هذه الإشارة من مقال لكامل علاونة في مواجهة الاستشراق والإهانات الغربية لخير أمة أخرجت للناس، على الموقع:

-
107

- المقال السابق، وهو المصدر الوحيد الذي أشار إلى هذا الأمر، رغم أنه ليس بمستبعد عنهم، بل كذلك كان حال شخصيات كثيرة خدمت الأهداف الاستعمارية التي أسندت إليها مثل الهولندي (سنوك هرجرونجه) (1857م - 1936م) قدم إلى مكة عام 1884م تحت اسم عبد الغفار كاسم مستعار، ومكث مدة نصف عام وعاد ليكتب تقارير تخدم الاستعمار في المشرق الإسلامي. سبق له أن أقام جادة مدة 17 سنة، وغيره كما تذكر المصادر كثير.

108

*/أما الأوبرا والباليه، والمسرحيات الموسيقية، والأعمال الأوركستراوية، والقطع الموسيقية، والمسرح، والتصوير، والتصوير الفوتوغرافي، والأفلام وفيها إنتاج كثير جدا.

*/الكرتون: (1929 – 1983) (the adventures of tintin)

¹⁰⁹(The upside down circle by Don Guilbert 1990 Dragon and tiger 2008)

في الختام؛

بعد هذا العرض الذي كان برأيي مختصرا حتى أنني لم أتعرض فيه لموضوعات كان لابد منها، كالإشارة إلى بعض الأعلام من المستشرقين، المتحاملين أو المنصفين، أو الوقوف عند واقع الاستشراق، الذي تشير الدراسات في العقدين الأخيرين إلى انتهاء مرحلة الاستشراق التاريخاني، بعد ثورة العلوم الاجتماعية والعلوم التاريخية، والدراسات والنقد اللاذع الذي أدان المؤسسات الاستشراقية بشدة، وكان أبرزها كتاب "إدوارد سعيد" "الاستشراق"، ثم تحوله كما يؤكد بعض الباحثين¹¹⁰ إلى استشراق أنثروبولوجي، خاصة مع تأكيد حاجات الدول إلى الخبراء والمستشارين المباشرين، ومع تصاعد مستويات العداء تجاه الإسلام¹¹¹ والعرب في أوروبا والغرب، ومن أبرز أعلامهم الجدد "إرنست جلنر" الذي تحدث عنه "سعيد" في كتابه تعقيبات على الاستشراق، وسبقت الإشارة في هذه المذكرة إلى أنه انتقده في عدم معرفته الكاملة باللغة العربية، رغم أنه يشغل حيز متخصص في أنثروبولوجيا الشرق، وهو كما يقول عنه المتخصصون أحد المنظرين للمستشرقين الجدد أو لدعاة أنثروبولوجيا الإسلام، ومن ملامح الاستشراق الراهن، كما تظهر في الاستشراق الفرنسي ممثلة في نبذ الطائفية، وقبول تعددية ثقافية، والمستشرقون الجدد كما يقول "هنري لامنس" يجددون مهمتهم بتقديم الخبرة والوساطة والانخراط في المناقشات بلا حواجز أو مقدسات وبالاستفادة من

¹⁰⁹ www.marefa.org - ما يتعلق بوسائل المستشرقين في الانتشار وخاصة الأخيرة منها والنماذج، من بين هؤلاء الباحثين "رضوان السيد، انظر مقاله " مصانير الاستشراق ونهايته " (2_1)، المنشور بجريدة الشرق ومقالات أخرى له أو عنه وهي منشورة على www.aawsat.com www.balagh.com وهو منشور وعلى موقع الأوسط، 6 نوفمبر 2004 موقع
انظر في هذا الموضوع كتاب إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، وهو متوفر بالمكتبة.¹¹¹

الانثروبولوجيا والتحليل النفسي لفهم إرادات الشرق. والدراسات الآن فيما يتعلق بهذا المجال وما
يستحدث فيه تطالعنا تباعا .

قائمة ببعض المصادر والمراجع (وهي متوفرة بمكتبة الجامعة)

إدوارد وديع سعيد، الاستشراق

إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق

إدوارد سعيد، تغطية الإسلام

فتحية النبراوي، الاستشراق

سعدون الساموك، الوجيز في الاستشراق

صابر طعيمة، أخطار الغزو الفكري على العالم الإسلامي

ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي

محمد إبراهيم الفيومي، الاستشراق رسالة الاستعمار

علي بن إبراهيم النملة، مصادر معلومات عن الاستشراق والمستشرقين

عبد القاهر العاني، الاستشراق والدراسات الإسلامية

محمد ضياء الدين عتر، نبوة محمد في القرآن

نجيب العقبي، المستشرقون

عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين

النبا العظيم، محمد عبد الله دراز

صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، عرض ودراسة

طبقات المستشرقين، لصالح حمدان

حاكم عبيسان المطيري، تاريخ تدوين السنة وشبهات المستشرقين

محمد بن مطر الزهراني، تدوين السنة النبوية: نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع

دفاع عن الحديث النبوي وتفنيده شبهات خصومه، محب الدين الخطيب، وسليمان الندوي، ومصطفى السباعي

ومن المواقع الالكترونية بالإضافة إلى التي ذكرت في بعض الهوامش

www.madinacenter.com

www.khayma.com

www.israj.net

www.midad.me

www.alukh.net

www.marefa.cm